زازا

العاشقة الوفية

رواية مجهولة لشاعر الأطلال

الدكتور إبراهيم ناجى

جمع وتحقيق: حسن توفيق

مؤسسة الرحاب الحديثة
بيروت - لبنان

الكتاب

زازا

(رواية)

المؤلف

إبراهيم ناجي

جمع وتحقيق

حسن توفيق

تصميم الغلاف

نادر العشري

تنضيد وإخراج

حسين طه

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 2011

الناشر

مؤسسة الرحاب الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع

E-mail: alrihabpub@terra.net.lb

هاتف: **00961 3 359788**

فاكس: 00961 7 241032

ص.ب.: **11/3847**

بيروت - لبنان

الدكتور إبراهيم ناجي

زازا

رواية مجهولة لشاعر الأطلال

جمع وتحقيق

حسن توفيق

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

زازا الوفية والعاشق الذي احترق

مقدمة بقلم : حسن توفيق

زازا.. رواية أدبية، كتبها شاعر الحب الرقيق الدكتور إبراهيم ناجي مبدع الأطلال وسواها من روائع شعرنا العربي، لكن الذين يستغرقون في التعرف على تفاصيل حياة هذا المبدع الجميل، ممن أحبوه - ولو عن بعد - يستطيعون القول إن زازا وإن جرى تصنيفها باعتبارها رواية إلا أنها بمثابة سيرة ذاتية، كتبها صاحبها في أخريات سنوات حياته، حين تجهمت الدنيا في وجهه، ودفعته – رغماً عنه - لأن يعيش محبطاً تعيساً، حتى وإن تجلى له نجم منير، يحاول بكل صفائه وبهائه أن يزيح ولو قدراً من تجهم هذه الدنيا، وأن يريح الروح الحائرة، مخفِفاً عنها بعض ما يتغلغل فيها من إحباط ومن تعاسة.

* * *

بدأ شاعر الحب الرقيق كتابة روايته أواخر سنة 1949 وأخذ ينشرها في حلقات متتابعة على صفحات إحدى المجلات الأدبية ابتداء من يوم 20 ديسمبر من تلك السنة، لكن السؤال الذي أطرحه وأود الإجابة عليه قبل أن نشرع في قراءة زازا – الرواية، يتعلق بزازا – المرأة، وهل هي شخصية متخيلة أم حقيقية، وهنا أقول على الفور ودون تردد إن زازا شخصية حقيقية، وليست وليدة خيال، شكلت عناصره كيمياء الإبداع الأدبي، ولكي نتعرف على هذه الشخصية الحقيقية لا بد من العودة إلى ما كان الشاعر الكبير صالح جودت قد كتبه عنها من واقع

صلته المباشرة بها ولقاءاته العديدة معها، بحكم أنه كان واحداً من أصدقاء مبدع زازا – الرواية، وهنا أترك المجال له لكي يحدثنا حديث الواثق الصادق .

في كتابه ناجي – حياته وشعره، يقول صالح جودت : لست أجانب الحق إذا قلت إن زازا هي المرأة الوحيدة التي أحبت ناجي. كانت شابة وسيمة السمات، أنيقة الروح، تعشق الشعر، قديمه وحديثه، وتحفظ الكثير من هذا وذاك، ولم تكن ذات مطامع كمطامع الغانيات، كان كل همها في الحياة أن تكون إلى جانب شاعر يحبها وتحبه.

ولقد لعبت زازا دوراً في حياة ثلاثة من الشعراء – قبل شاعرنا – كلهم جهير وأثير عند الناس، ثم انتهت إلى شاعرها الأخير، فوجدت عنده ما لم تجده عند الأولين من تفرغ لها وهيام بها، إلى حد أنها كانت كل همه، وشغله في أكثر يومه من مطلعه إلى مطلع اليوم الذي يليه. ثم وجدت عنده ما لم تجد عند غيره من نزعة الروح دون الجسد، وأحسب أنها – وقد عرفتها عن كثب – كانت لوناً فريداً من النساء لا تستهويه نزعة الجسد .

وإذا كان صالح جودت قد رسم لنا – بدقة وإيجاز - هذه الصورة الإنسانية لزازا – المرأة، فلا بد لنا أيضاً أن نتابع رحلتنا معه، وهو يشير إلى ارتباطها الوثيق بناجي خلال سنوات حياته الأخيرة، قائلاً : ظلت زازا إلى جانبه إلى أخريات أيام حياته، تهبه حياتها وهي صبية، وهو شيخ يقترب من الستين، وهو فوق ذلك قليل الحظ من المال والجمال والفحولة، مريض بذات الرئة، فما من شك بعد ذلك أنها كانت تحبه حباً مثالياً لا غاية وراءه إلا الحب في ذاته. وعندما مات، لم تحزن زازا ولم تلبس السواد، وإنما فعلت هذا لا عن جحود، بل عن فلسفة فوق فلسفة الأرض، وعن إيمان منها بأن الشاعر لم يمت.. . كل ما حدث أنه ذهب ولم يترك عنوانه، كما قالت في رسالة منها إلى الأستاذ الشاعر أحمد رامي.

وحين نذهب بعيدا مع صالح جودت، دون أن نكتفي ببعض ما نقلناه مما رواه، فإننا نجده يقول – بنص كلامه – إن هناك قصة تواترت في محيط ضيق، ولكنها لم تجد ما يؤيدها.. تقول القصة إن الشاعر قد تزوج زازا في أخريات أيامه، وإن زواجهما بقي سراً مكتوماً في وثيقة بينهما، وإن زازا لم تشأ أن تزعج

روح الشاعر بهذه القصة بعد وفاته، ولا أزعجت ذويه بحديث الإرث، إن كان هناك إرث .

وإذا كان لي أن أضيف إلى ما قاله صالح جودت، فإني أقول إن قصة زواج زازا وناجي قد أشار إليها بالتلميح وليس بالتصريح شاعر آخر من أصدق أصدقاء ناجي، لكنه لم ينل ما يستحقه من إشادة وتكريم، وهو الشاعر محمد مصطفى الماحي، وفي هذا السياق فإنه يضيف إلى وصف صالح جودت لزازا صفة جديدة وهي أنها فنانة، دون أن يحدد ميدان الفن الذي كانت تمارسه، حيث يقول بالنص : إن الحب الأخير لناجي هو حبه لزازا، وهي فنانة سمراء رشيقة ورقيقة، تحب الشعر وتعشق الفن، وكانت كثيراً ما تناقش الشاعر في شتى فروع الأدب والثقافة والفن، و لابد لي هنا أن أذكر أن للشاعر محمد مصطفى الماحي كتاباً جميلاً عن ناجي، لكن هذا الكتاب ما يزال مخطوطاً بكل أسف، وعندي نسخة مصورة من المخطوطة، كنت قد حصلت عليها سنة 1978 من المهندس حسن ناجي، أصغر أشقاء مبدع زازا.

* * *

أحببت أن نتعرف على زازا – المرأة، من خلال شاعرين عرفاها عن قرب، هما صالح جودت ومحمد مصطفى الماحي، ولكن علينا أن نتذكر أن قصة الحب العميقة التي أثرت في حياة ناجي، تتمثل في عشقه لإحدى تربياته الجميلات، منذ أن كان طالبا في مدرسة الطب السلطانية – كلية الطب بالقصر العيني فيما بعد، ولم يستطع ناجي رغم مر السنوات أن ينسى هذه الحبيبة – القريبة، حتى وإن كانت قد أخلفت وعدها له بالزواج منه، وهذا ما كنت قد تحدثت عنه بالتفصيل في مقدمة الأعمال الشعرية الكاملة لناجي والتي قمت بجمعها وتحقيقها، وصدرت طبعتها الأولى عن المجلس الأعلى للثقافة في مصر سنة 1996.

هنا أتساءل : ما الفرق بين الحبيبة – القريبة ع. م والشابة الوسيمة السمات زازا ؟

* فيما يتعلق بالحبيبة – القريبة، فإنها كانت بطلة قصة الحب العميقة في حياة ناجي، باعتبارها حبه الأول الذي غزا قلبه، ولم يستطع الإفلات من تأثيره على امتداد حياته من مبتداها حتى منتهاها، ومنذ أن أخلفت وعدها بالزواج منه وانطلقت لتتزوج سواه، فإنه عاش على ذكراها، وكأن الحياة قد خلت من النساء، ولم تعد فيها امرأة سواها، لدرجة أنه كان حين يجلس مع أحد أصدقائه لكي يشرب وينسى، فإنه كان يتذكرها ويتذكر حرمانه منها بمجرد أن يفيق :

هات اسقني واشرب على سر الأسى
وعلى بقايا مهجة وشجاها
مهلا نديمي كيف ينسى حبها
من ينشد السلوى على ذكراها
ما زلت تسقيني لتنسيني الهوى
حتى نسيت فما ذكرت سواها

* أما فيما يتعلق بزازا، فإنها كانت مثالاً للنبل والتضحية والوفاء، لأنها عرفت ناجي في سنوات حياته الأخيرة، وكان وقتها – كما قلت – محبطاً وتعيساً، بينما كانت هي شابة وسيمة السمات كما وصفها صالح جودت، وهذا ما دفع ناجي لأن يتساءل وهو مندهش في مطلع إحدى روائعه : بأي معجزة في الحب نتفق ؟ دون أن يتردد في الإجابة على التساؤل الذي انبثق، قائلاً: يا قلب لا يتلاقى الفجر والغسق! ومع هذا فإن المعجزة قد تحققت وعاشت زازا مع ناجي عاشقة صادقة ووفية إلى أن رحل عن دنياها ودنيانا .

* كتب ناجي قصيدة الأطلال الرائعة وروائع أخرى عديدة من وحي بطلة قصة الحب العميقة في حياته، وكتب من وحي زازا الوفية قصائد لا تقل جمالاً ولا روعةً عما كتبه من وحي حبه الأول، وهنا أشير – على وجه التحديد – إلى قصيدته التي سماها زازا، وهي القصيدة التي اختارها – فيما بعد – الشاعر أحمد رامي،

لكي تتصدر ديوان الطائر الجريح الذي صدر سنة 1957 بعد رحيل مبدعه ناجي بأربع سنوات .

* كان ناجي قد أهدى ديوانه الثاني الشهير ليالي القاهرة وكذلك كتابه رسالة الحياة إلى بطلة قصة الحب العميقة، وقد رمز إليها بالحرفين الأولين من اسمها ع. م. و صدر كل من الديوان والكتاب سنة 1950 وهنا قد نندهش أو نتعجب حين نعرف أنه قد كتب روايته الوحيدة والموجودة بين أيدينا الآن في أواخر سنة 1949 وقد بدأ نشر أولى حلقاتها – كما قلت - يوم 20 ديسمبر سنة 1949 بينما نشر آخر حلقة منها يوم 20 مايو سنة 1950 وهي السنة التي أهدى خلالها لبطلة حبه الأول ديواناً وكتاباً نثرياً، فهل يعني هذا أنه كان يتذكر الحب الأول حتى وهو مستغرق في حب زازا الوفية؟!

* لست أريد أن أفسد على القراء متعة قراءتهم لرواية زازا، ولهذا السبب فإني ألجمت قلمي ومنعته من التدخل بالشرح والتفسير أو بالتبرير، لكني أريد الإشارة – بصورة موجزة – إلى بعض الملاحظات. منها أنني لم أسترح ولم أستسغ أن يستخدم ناجي – وهو الشاعر الكبير – اللهجة العامية المصرية في الحوار، وكنت أتمنى لو كان قد كتب هذا الحوار بلغة عربية بسيطة وبعيدة عن التكلف والتقعر كما يفعل العملاق نجيب محفوظ .

* لو أننا توقفنا قليلاً عند شخصية – ناني – في الرواية، فإننا سنجد أننا أمام محام مثالي، كان شهيراً إلى أن تجهمت الدنيا في وجهه، وتحالف المرض مع الضائقة المادية ضده، وهذا هو ناجي نفسه في سنوات حياته الأخيرة كما قلت من قبل، وعلينا أن نتأمل في اختيار اسم الشخصية – ناني – فهو مجرد تعديل طفيف لاسم – ناجي - وهذا ما دفعني للقول إن الرواية تكاد تكون سيرة ذاتية، وهناك شخصية أخرى في الرواية، هي شخصية ألبير فانوس، وهو طبيب مرموق، لكن مثاليته في التعامل مع الناس ومع الحياة المادية أضاعت منه كثيراً من الفرص التي لم يحاول أن ينتهزها، فتجهمت الدنيا في وجهه هو الآخر .

* أستطيع القول بكل ثقة إن ناني وألبير فانوس يشكلان معاً شخصية ناجي الشاعر العاشق المثالي، وسنلاحظ حين نتابع الرواية أن ناني – وهو المحامي

المسلم - يقرأ الإنجيل ويبدي إعجابه بالسيد المسيح، بينما فانوس – وهو الطبيب المسيحي - يقرأ القرآن ويبدي إعجابه بالرسول محمد، ويحاول ناجي – الشاعر المثالي هنا أن يؤكد على قيمة التسامح، وأن يشير إلى أن المتشددين المتشنجين هم من الجهلة الذين يسعدون بجهلهم، بل ربما يفاخرون ويعتزون به !

* مقابل ما يتحلى به كل من ناني وفانوس ومعهما مبدعهما ناجي من مثالية ومن تمسك بالقيم النبيلة والجميلة، نجد شخصيات أخرى، ترمز للغش وللعفن الاجتماعي ولانحطاط السلوك، منها – على سبيل المثال – شخصية بعجر المقاول، وإذا كان لا بد من أن أعود إلى شعر ناجي في هذا السياق، فإني لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أردد قوله في هذه الأبيات المتألمة والمتوجعة :

عشتُ وامتدَّتْ حياتي لأرَى
في الثرى من كان قبلا في القمم
انهيار المُثُل العُليا وإن
كبار آلاءٍ وكُفْر بالقِيَم
مَنْ يَكُنْ عَضَّ بنانًا نادمًا
فأنا قَطَّعْتُ إبهامَ النَّدَم
وإذا انْحَطَّ زمانٌ لم تَجِدْ
عاليًا ذا رفعَةٍ إلاّ الألَم!

* لست أظلم ناجي – وأنا الذي أحببته منذ مطلع صباي – حين أقول إنه كان يتعجل فيما يكتب، وكان يتعجل كذلك في نشر ما يكتب، بينما تتطلب الكتابة الأدبية أن يتأنى الكاتب وأن يتمهل وليس أن يتعجل، وقد انعكس هذا التعجل على طريقة نشر حلقات رواية زازا، فأحياناً كنت أجده يشير إلى رقم الفصل الذي ينشره، وفي أحيانٍ أخرى لم يكن يفعل هذا، ولهذا السبب فإنني ألغيت الإشارة إلى كلمة الفصل واكتفيت بكتابة أرقام، تدل على فصول الرواية، كما أنني قمت

بكتابة عناوين لبعض الفصول التي لم يكتب هو عناوين لها، وهذا بيان بفصول الرواية كما هي عليه الآن:

1- بأي معجزة في الحب نتفق؟ لم يكن هناك عنوان لهذا الفصل الأول وبالتالي فإن هذا العنوان من اختياري، وهو مطلع إحدى روائع ناجي وقد سبق أن استشهدت به من قبل.

2- في مكتب المحامي – العنوان في الأصل هو في المكتب، ولكني أردت أن يكون واضحاً بشكل أفضل .

3- زازا.. من هي ؟

4 – ناني.. من هو ؟

5 – عند الدكتور فانوس

6 – العاصفة

7 – بعجر أفندي

8 – جروبي

9 – الوقاحة تتجسد في امرأة – العنوان من اختياري

10 – نكسة الداء

11 – عند المقاول

12 – القرآن والإنجيل معاً – العنوان من اختياري

13 – ليلة مع زازا

14 – ليلة مع ناني

15 – وفاء القادر وتردد الحائر – العنوان من اختياري

16 – اللقاء الأخير

17 – في المصحة

* رأيت أن أنشر القصيدتين اللتين كتبهما ناجي عن زازا بعد ختام الرواية مباشرة، لنرى أن ما قاله ناجي نثراً قد قاله كذلك شعراً، ولكن شتان ما بين لغة الشعر الرائع وبين لغة النثر عنده .

* ظلت رواية زازا راقدة داخل صفحات المجلة التي نشرتها، وحين بدأت أقوم بجمع الأعمال النثرية لناجي نبهني أحد أساتذتي الكبار وهو الأستاذ فاروق خورشيد إلى ضرورة البحث عن هذه الرواية، لكن البحث كان يتطلب وقتاً أطول لم يكن متاحاً لي، بحكم أني لم أكن أعمل في مصر، وإن كنت أقضي بالطبع إجازاتي السنوية بها وهي لا تكفي لمهمة البحث المتأني والمتواصل.

* من الكتب والدراسات المهمة التي أصدرها الكاتب الموسوعي والإنسان النبيل الدكتور علي شلش، كتاب بعنوان المجلات الأدبية في مصر – تطورها ودورها، وقد صدر هذا الكتاب عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1988 ولا بد أن أشيد بأهمية هذا الكتاب الذي استطعت بفضله أن أتوصل إلى المجلة الأدبية التي كانت قد نشرت رواية زازا لناجي .

* بعد استكشاف بدايات الطريق من خلال ما كتبه الدكتور علي شلش، بدأت رحلة أخرى جديدة للعثور على نسخ من أعداد تلك المجلة، وذلك لأن أعدادها الموجودة في دار الكتب المصرية ممزقة ومتهرئة ولا تصلح للتصوير، بل لا تصلح حتى للقراءة، وكان لابد أن أشتري تلك الأعداد من الباعة المتمرسين في سور الأزبكية، وكلفت الصديق الراحل خيري عبد الجواد بالأمر، وهكذا حصلت على مجموعة كبيرة من أعداد المجلة، بعد أن قمت بشراء كل عدد منها بعشرة جنيهات، بينما كان ثمن كل عدد وقت صدور المجلة ثلاثة قروش، باستثناء الأعداد الممتازة التي كان سعر العدد الواحد منها خمسة قروش !

* قمت – والفرح يغمر قلبي – بترتيب أعداد المجلة ترتيباً دقيقاً، ثم بدأت القراءة وأنا أشعر أني أمام كنز أدبي، وأن هذا الكنز قد أصبح ملكاً خالصاً لي، فإلى جانب رواية زازا عثرت على بعض القصص القصيرة لناجي، ورأيت أن أنتشلها من رقدتها الطويلة داخل أعداد المجلة، وذلك بنشر ثلاث قصص منها ضمن هذا الكتاب الذي يضم رواية مبدع الأطلال وسواها من الروائع .

* كانت مفاجأة مدهشة ومبهجة حين عثرت كذلك على قصة قصيرة كتبها ثلاثة أدباء هم صالح جودت ونجيب محفوظ وعبد الحميد جودة السحار، وقد رأيت أن أنتشل هذه القصة أيضاً، وأختتم بها هذا الكتاب، والقصة بعنوان على البلاج،

وكان الأدباء الكبار الثلاثة قد اشتركوا في كتابتها أثناء جلوسهم في كازينو جليم بالإسكندرية خلال صيف سنة 1950.

* آن أن أتحدث عن المجلة التي نشر فيها ناجي روايته الوحيدة التي بين أيدينا الآن. إنها مجلة القصة التي صدرت سنة 1949 واستمرت في الصدور حتى سنة 1955 وكانت هذه المجلة تصدر مرتين خلال كل شهر، فهناك عدد يصدر يوم الخامس من كل شهر والعدد التالي له يصدر يوم 20 من نفس الشهر وهكذا .، وكان ناجي مديراً لتحريرها خلال الفترة التي نشر فيها روايته زازا وما قبلها وبعدها بقليل، كما أنه كان يكتب أحياناً افتتاحية العدد، مركزاً فيها على فن القصة القصيرة، ولولا خشيتي من أن يتضخم حجم هذا الكتاب الذي بين أيدينا لكنت قد قمت بضم بعض المقالات الافتتاحية التي كتبها ناجي ونشرها عبر أعداد المجلة .، ويمكن لمن يريد الاستزادة فيما يتعلق بمجلة القصة ذاتها أو ما يتعلق بسواها من المجلات الأدبية أن يعود إلى كتاب الدكتور علي شلش، وهو الكتاب الذي أشرت إليه من قبل .

* إذا كنت قد توصلت بعد جهدٍ كبير إلى معرفة اسم ملهمة الأطلال وسواها من الروائع المبكرة في مسيرة ناجي الشعرية، وهذا ما أوضحته بالتفصيل في مقدمة الأعمال الشعرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجي والتي صدرت – كما ذكرت – سنة 1996 فإني – بكل أسف – لم أستطع التوصل إلى معرفة الاسم الكامل لرفيقة ناجي خلال سنوات حياته الأخيرة، فكل ما أعرفه هو اسمها – زازا - الذي ذكره ناجي وذكره من بعده صالح جودت، وكلي أمل أن أعرف فيما بعد ما لا أعرفه الآن.

* الآن أستطيع القول إني قد قمت بواجبي تجاه شاعر الأطلال، بعد أن جمعت في البداية خمسين قصيدة من شعره المجهول في كتاب صدر عن مكتبة مدبولي بالقاهرة سنة 1978 ثم جمعت أعماله الشعرية الكاملة التي صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة في مصر سنة 1996، وقدمت بعدها أعماله الشعرية المختارة التي صدرت عن وزارة الثقافة والفنون في قطر سنة 2003 فضلاً عما قمت بجمعه من الأعمال النثرية لناجي والتي كانت قد صدرت – على نفقتي الشخصية – في

مجلدين كبيرين سنة 2001 كما ستصدر لها طبعة جديدة عن المجلس الأعلى للثقافة بقيادة أمينه العام الدكتور عماد أبو غازي، وها هي أخيراً رواية زازا ترى النور بعد أن ظلت مستسلمة وغارقة في رقدتها الطويلة منذ أواخر سنة 1949 .

* أظن أن من واجبي الآن أن أتنحى جانباً، بعد أن قلت ما يكفي مما أود أن أقوله، وذلك لأن من حق قراء ناجي أن يقرأوا روايته المجهولة والمنسية، ومعذرة إذا كنت قد تدخلت بشرح أو تفسير أو تبرير. وتبقى تحية الحب والتقدير لروح الدكتور إبراهيم ناجي الإنسان المثالي الحالم و الشاعر العاشق الذي أحرقه الحب، ولم ترحمه منغصات الحياة خلال سنوات حياته الأخيرة .

الزيتون – القاهرة – سبتمبر 2010

حسن توفيق

زازا

نص الرواية

1 بأي معجزة في الحب نتفق؟

التفتت زازا لناني - بعد صمت - قائلة:

- بتحبني ؟

- لا يا زازا..

- إزاي! ليه ؟ جرى إيه ؟!

- لقد كرهت الحب الذي ألفه الناس، ولا أستطيع أن أسمي الذي بينك وبيني حباً، ولا أريد أن أشترك مع العامة في لفظ واحد وعاطفة واحدة.

- أنت يا ناني لا يروقك أن تدع الأمور تمشي ببساطة. إن فلسفتك تعقد الأمور وتشيع الفزع في نفسي.. لماذا تريد أن تخترع شيئاً جديداً ؟ قل لي أولاً إنك تحبني الحب الذي عرفه الناس، ثم دعنا ننتقل إلى ما لا يعرفون.. هيا...

- أحبك... لكن

- إني أكره كلمة "لكن" إنها حجر ثقيل في طريق سهل معبد

- افهميني جيداً يا زازا. لماذا يستعصى عليك فهمي أحياناً؟ إنك أحببتني عن معرفة.

- كلا.. كلا إني أحببتك وأحبك وسأحبك عن جهل لا أدري لماذا أحبك. لم أحاول أن أعلم. حبي لك واضح كل الوضوح مضئ في جانب نفسي فكيف تريد أن ألقي عليه أضواء تزيده وضوحاً وتفسيراً؟

كان هذا الحوار يدور بين زازا وناني في مينا هاوس وقد جلسا بين النخيل. كان الشعاع الذي ينفذ إليهما من خلال النخيل ضئيلا

فاطمأنا إلى ظلمة مؤقتة غير أن القمر الذي كان يسير متمهلاً كمن يفكر مهموماً وقف فجأة وأخذ يتفرس في وجه زازا، وكانت زازا قد أخفت وجهها بيديها واتكأت على حرف المائدة، تستبعد خاطراً مزعجاً، أو تحاول صد فكرة مهاجمة، فكشفها القمر وجلاها لناني صورة رائعة من الجمال والصراع والعذاب، وخيل له أنها تحتج في صمت على القدر الذي مد يده إلى حريتها فقيدها، وإلى رأسها الشامخ فحناه في ضراعة غريبة على زازا...

أنثى تفيض حيوية وتتنفس شباباً وقوة، يربطها سر لا تفهمه ولا تتبين كنهه، برجل نفض كفيه من تراب الحياة والأمل، قد استحال فؤاده إلى رماد، وتقوس كاهله تحت أعباء السنين والأسقام. صرخ مرتاعا: زازا.. زازا فأجابت في همس: اسكت.. اسكت.

فسكت احتراما للصراع الذي يدور في نفسها من أجله.. وأخذ يتذكر كيف التقيا وأين.

كان حين التقيا قد فرغ رصيده في بنك الحياة، وأخذ يدبر أمره، كما يدبر المفلس ميزانيته الخربة. كان الخادم يغلق باب المكتب الذي علقت عليه لافتة قديمة ظهر عليها بحروف بالية "حسين ناني" المحامي. لا يدري ناني لماذا وقف ينظر للخادم وهو يغلق الباب ولا يدري لماذا وقف يتأمل اللافتة ويقرؤها حرفاً حرفاً أكان يقرأ في حروفها الحائلة تاريخ حياته؟! أكان ينظر إليها نظرة آلية وهو شارد اللب منصرف لناحية أخرى أكانت نفسه تحدثه بانتزاعها من مكانها؟ لقد كان هذا المكتب ذات يوم يموج بالزبائن ويعد بالمجد والشهرة والمال فتألبت عليه عناصر الفشل حتى أحالته قفرا.. وزاد المحنة سوءاً أن ناني لزم فراشه مريضاً بمرض خطير وطالت علته حتى قضت على البقية الباقية من الرجاء. وهذا أول يوم يعود فيه إلى مكتبه بعد شفائه. إنه يعود إليه حطاماً لينفخ الروح في حطام، عليه أن يكافح كفاحاً مريراً طويلاً، عليه أن يجدد المعالم التي انطمست والدنيا التي انمحت. ولكن بأي ذراع وبأي عزيمة وبأي روح؟

وأيــن الــذراع والعزيمــة والــروح؟ لا يمكــن أن يكــون لهــا أثــر فــي الجســد الضــامر الســقيم، ولا فــي العــين الكســيرة التــي تتأمــل اللافتــة فــي شــرود ووجــوم... لاحــت لنــاني التفاتــة فــإذا بــه يــرى الخــادم يلقــي مــاءً معطــراً علــى بــاب المكتــب، فضــحك وقــال لــه: مــا هــذا؟ قــال الخــادم: مــاء مخصــوص علشــان يفــك "العمــل" فاسترســل نــاني فــي الضــحك وقــال ســاخراً؟ "علــى اللّه" ولمــا همَّ بــالنزول رأى فتــاة تصــعد الــدرج. إنــه مــا عــاش لــن ينســى هــذه اللحظــة لحظــة لا تتــاح إلا مــرة واحــدة فــي الحيــاة وغالبــاً مــا تجــئ فــي أول الصــبا حــين تكــون الحــواس متأهبــة متفتحــة، أمــا فــي مغــرب العمــر.. إن هــذا فــوق احتمــال العمــر المولي.

كــان يلــذ لــه دائمــاً أن يســتعيد هــذه الــذكرى، الســاعة، المكــان، الــدرج، هــذه الــذكرى التــي نقشــت تفاصــيلها فــي ذهنــه بحــروف مــن دم علــى طرف رمح.

كانــت زازا هــي ذلــك الــرمح بقوامهــا الممشــوق، ومشــيتها القويــة وأنفهــا الواضــح الأشــم أمــا الــدم الــذي علــى طــرف الــرمح فقــد أحــس بــه حــين هاجمــت زازا قلبــه فشــجته، حــين صــبت نفســها فــي قلبــه صــباً بقوامهــا وســحرها وعنفــوان شــبابها، حــين هاجمــت وجرحــت فــي لحظــة واحــدة فــي وثبــة علــى الــدرج، حــين صــنعت كــل هــذا ولمــا تنطــق بكلمــة، فلمــا شــرعت فــي الحديث تولى القدر بقية الموضوع.

تــذكر زازا وهــي تســأله، وقــد اتكــأ علــى حــرف الــدرج متماســكاً "فــين مكتب المحامي علي بك يسري"؟

فأجــاب "هــذا مكتبــه ولكنــه مســافر... أأســتطيع أن أؤدي خدمــة... اسمي حسين ناني المحامي".

قالــت فــي الحــال لا بــأس.. نســتطيع أن نتحــدث ولكــن أنــت منصــرف الآن.. يمكننا أن نؤجل هذا لغد.. اسمي زازا حلمي...

أتــرى كانــا علــى ميعــاد مــع القــدر، مــا ســر ذلــك الربــاط الرهيــب، فــي مســاء كئيــب، علــى درج مظلــم، أمــا هــو فكــان الزلــزال يــرتج فــي أعماقــه، أمــا

هي فلا شك أحست بما أحس به، فنزلت الدرج وهي تتهادى في حيوية مصطنعة محاولة أن تمحو كل أثر للمعركة الدامية الخفية التي أخذت رحاها تدور في نفسها... هكذا كانت زازا دائماً كما عرفها وكمنا يراها الآن تتأبى على الدموع وتستر الجراح، وتكتم الأنين، ترى ماذا يدور في نفسها الآن؟ إنها تضع يديها على وجهها كمن يضع الغطاء على مرجل فائر... أكانت تحاول الفكاك من قوة لا تستطيع مقاومتها؟ ولم لا تثور؟ ما الذي يقيد السحر بالشفق؟ ما الذي يقيد الزهرة الندية بالسنديانة الجافة، ما الذي يقيد الجمال المتفتح اللامع بالكوكب الآفل؟

وقفت زازا فجأة وهزت رأسها بعزيمة، فاهتزت خصلات شعرها الجميل بحركة عصبية، فتناثرت خصل متمردة ثائرة، لا تدعها زازا تهدأ ساعة، إذ طالما مدت إليها يدها البضة الصغيرة تثيرها وتهتاجها حتى تقف هي الأخرى غاضبة تتحدى، وقد تتفنن زازا كما تتفنن كل حسناء في تصفيف شعرها، فتطويه أحياناً وتنشره أحياناً، وتعقصه أحياناً، إلا خصلة صغيرة بجوار الأذن تثور على كل تصفيف وتتمرد على كل وضع..

كان ناني يسمى هذه الخصلة "زازا الصغيرة".. فالآن رأى على ضوء القمر وجه زازا الشاحب، عينيها المتكسرتين المضعضعتين من مقاومة الدموع، والخصلة الصغيرة.. كل هذا كان صورة ملموسة لعاطفة عارمة تدفعها إرادة صارمة، فإن الأهداب المتيقظة حول مقلتيها كانت كأنما تحرس غديراً منساباً في محاجرها، وحين كانت تغطي وجهها بيديها كان ناني يلمح انسياب الجمال بين أناملها، وكانت زازا تقبض على منديلها، بعنف وعصبية كأنما كانت تقاوم انسياب هذا الجمال...

صورة تجمع بين رقة الحرير وصلابة الفولاذ، تجمع متناقضين من أخطر ما اجتمع في نفس. فقد ينقلب الفولاذ سيفاً يقطع في وسادة من حرير. معركة رهيبة. لا صوت. ولا دماء. ولا أنين، من ذا رأى وسادة يقتلها سيف؟ التفت إليها من مجلسه وقال معاتباً "أنت يا زازا تفسدين جمال هذا السكون بثورتك المكتومة فأجابت: وأنت يا ناني تفسد

بساطة السكون بكثرة التعليل والشرح.. لماذا تتعمق دائماً وتعلل دائماً وتحكم المنطق دائماً، أتعلم أنني قد سرت إليَّ العدوى منك، فصرت أبحث في أصول حبي لك، وأناقش أسباب تفكيري فيك، وقد كنت آخذ حبك جملةً كما أعطانيه القدر، قائلاً "خذي" فأخذت بكل بساطة..." وكان بقربهما فتى وفتاة يعقدان الصلح على مائدة مجاورة، وأمامهما سيارات وجيهة هذه ينزل منها شاب غض الإهاب يتأبط ذراع شابة مزهرة مرحة، وهذه ينزل منها عجوزان، رجل وامرأة، ولى شبابهما وبقي المال، يحأولأن به استرداد ما ذهب واستعاضة مافات، وهذه سيارة "تاكسي" ينزل منها اثنان، ينسيان فقرهما بغرامهما ويملآن النفس من جمال الحياة وجوهرها، عند غياب بريقها ومظهرها. أخذ ناني وزازا يتأملان في صمت هذه المواكب المتلاحقة، وقد تذكرت زازا كم مرة جاءت في الصباح لتستمتع بالشمس وتقرأ الشعر في كتاب تحبه أو تستمع إلى ناني يلقيه بصوته المنفعل المتمرد كالأمواج الصغيرة على شاطئ صخري، وإذا جاءت في المساء فلكي تجلس جلستها هذه بين النخيل تنظر إلى القمر وتصغى إلى همس النسيم وناني... نظرت إلى ساعتها فأدركت أن الليل قد انتصف وعندما أحست باقتراب موعد الفراق شعرت بأنها لم تقل لناني شيئاً مما كانت تعده له، لم تسأله عن مكتبه، عن طعامه وشرابه وملبسه، عن صحته، لم تسأله شيئاً مما تهتم له امرأة تحب وتفنى في حبيبها ورجلها الموعود، حقيقة لقد مر الوقت وقد نسيت أن تتحدث إليه في هذه الشئون. الواقع أنهما كانا يتجنبان – عن غير قصد – ما تجر هذه الأمور وراءها من الأحاديث عن سخافات الحياة وعقباتها وتقاليدها، الحق أنهما كانا يهربان من مواجهة الجحيم الذي كان يعيش فيه كل منهما بمفرده، الحياة الرتيبة، الأمية الصارخة، الرياء البغيض، وهناك جحيم لا يقاس به جحيم، جحيم خاص ينغمس فيه كل منهما حين يبعد عن الآخر، جحيم شنيع فيه وهج لافح أكال، تهب لوافحه من ناحية خفية مجهولة من صحراء نائية تلقي على وجهيهما رمالها الساخنة، وقد يكون

هـذا الفـراق لسـاعة أو لـبعض سـاعة أو ليـوم، أو لسـواد ليلـة، ولكنـه يحمـل أبداً لوافح هذا الجحيم بلظاها وجمراتها وشياطينها وأعاصيرها.

وليسـت هـذه أول مـرة يقفـان فيهـا للـوداع، ويحسـان فيهـا بهـذه اللوافح تتكاثر عليهما وتهب من هنا وهناك لاذعة قاسية.

وضـعت زازا يـدها علـى خـدها وقـد أحسـت بنـار هـذا الجحـيم ونظـرت إلـى صـاحبها، فـإذا بـه يضـع يـده علـى خـده يتحسـس نفـس اللفـح والأوار، فعرفت أنه يعاني ما تعانيه فصاحت هامسة "هيا بنا".

2 مكتب المحامي

باب الخلق شارع الثعالبي نمرة 5.. هذا هو عنوان المكتب، وهو مكتب بسيط متواضع مكون من ثلاث غرف، فيها نظافة وليس فيها أناقة، تشتم منها رائحة الهدوء وتتنفس في جوها حكمةً وتفكيراً. تزينها مكتبة تستند إلى جدران الغرف وتزحف إلى مكتب الباشكاتب "أمين أفندي" وتنحرف قليلاً فتطل على سيد الخادم.

عشرون عاماً مرت بهذا المكتب، عشرون عاماً رتيبة لم يتغير فيها إلا مظهر أمين أفندي وسيد، فقد ترهلا ووخط الشيب شعريهما أما الباشكاتب فقد زاد على ذلك أنه اقتنى أملاكاً واشترى سيارة، أما سيد فقد ظل على غيابه وفقره.

وكان كل الحي يتهامس أن الباشكاتب لص، وأنه يسرق الأستاذ الطيب القلب، وطالما همس أهل الحي في أذنه: "ده بيسرقك".. "ده اشترى سيارة". فيجيب الأستاذ ضاحكاً:

- كل الناس حرامية.

في هذا اليوم قرع المحامي الجرس، فهرول الباشكاتب حاملاً الأوراق والملفات. وكان من عادته بعد التحية أن يبدأ بسرد أخبار كاذبة عن الوزارات، والقضايا، والزواج، والطلاق.. فإن لم يكذب يخترع، وكانت أخباره دائماً تحمل طابع التفاؤل الكاذب. فالقضية الفلانية كسبانة مائة في المائة. والوزارة ستقترح إنعامات على جميع المحامين الذين اشتغلوا أكثر من عشرين عاماً. والباشا الفلاني الذي طال ترداده على المكتب "عنده بنت حلوة". ثم يبتسم ابتسامة ذات معنى، ويقدم كشف "مصروفات بسيطة". وكانت طريقته في تقديم كشف

المصروفات أن يتأخر قليلاً، ثم يتقدم كأنه نسي شيئا، ثم يميل إلى جانب، ويقدم ورقة صغيرة هامساً: "مصروفات بسيطة..".

وكان "ناني" يضحك عندئذ ويعطيه ما يطلب بدون مراجعة فقد كان يعلم أنه لا فائدة من مناقشة هذه الأكاذيب المقررة.. وبعد أن ينصرف "أمين أفندي" يدخل سيد حاملاً القهوة.. وسيد هذا مخلص، وغبي، وكتوم.. ولا ندري هل إخلاصه نتيجة غبائه؟ أم غباؤه نتيجة إخلاصه، ولا نستطيع أن نحكم على صفة الكتمان: أهي نتيجة غبائه أم إخلاصه. أم هما معاً! المهم أنه كان يعرف واجبه معرفة أكيدة، فإن المحامي لا يذكر في العشرين عاماً التي انقضت في هذا المكان أنه لمح شبحاً للغبار على مكتبه، وكان الوفاق بينه وبين الباشكاتب عجيباً، وبالرغم من أنه كان يعلم عن لصوصيته ما لا يعلمه أحد فقد طبق عليه نظرية الكتمان أتم تطبيق. وزيادة على ذلك فطبيعة الكلب الوفي المتأصلة فيه كانت تحتم عليه الرضى عنه ما دام سيده المحامي راضياً.

ومرت الأيام. وسيد يزداد غباءً وإخلاصاً وكتماناً ونظافة، وقد التقى أخيراً بزمرة من الخدم الصالحين علموه الصلاة، حتى نبتت له "زبيبة" في جبهته!

عاد "أمين أفندي" بأوراق جديدة، وأخذ يسرد أخباره الصباحية، بلغ سعادتك أنهم عايزين مستشارين؟ أنا رأيت الجواب بعيني مكتوب باسمك في الحقانية. تعرف سعادتك علي باشا اللي له قضية هنا..

هنا دخل سيد. وكانت طريقته في الدخول عنيفة تماماً. فهو يندفع من الباب كالقنبلة، وقد حاول المحامي عبثاً أن يعلمه الاستئذان أو على الأقل الدخول في هدوء. قال المحامي عاتباً:

- وبعدين يا سيد انت مش حاتتعلم كيفية الدخول وتسيب الطريقة البلدي دي؟

قال سيد متجاهلاً هذه النصيحة:

- الدكتور "فانوس" منتظر في الاستراحة.

قال المحامي: فليتفضل بسرعة.

ودخل الدكتور فانوس صديق ناني الحميم، ورفيق صباه وتوأمه الفكري.. قصير القامة أصلع الرأس، أسمر اللون، كبير الرأس قوي الفك، له أسنان بارزة تبدو من ثنايا ثغره المتهلل، في الحلقة الرابعة من العمر. أقبل الدكتور في لهفة وشوق نحو صديقه معانقاً وبعد أن جلس قدم "ناني" لصاحبه سيجارة، فضحك "ألبير فانوس" – وهذا اسمه بالكامل - وقال:

- إن مكتبك يا ناني مدخنة. وأنا أعتقد أن مرضك الأخير له علاقة بإفراطك في التدخين. ثم إنك عضو في رابطة منع التدخين.

فقهقه "ناني" قهقهة عالية وقال:

- إن جميع أعضاء هذه الرابطة مدمنو سجاير.

ثم استطرد قائلاً بعد تمهل:

- إن تدخيني عادة سيكولوجيه محضة. فإن عندي شيئاً من الضيق المتأجج في داخلي يسرني أن أراه منعكساً على الخارج في طرف سيجارة. ويبهجني أن أرى السيجارة تحترق حتى النهاية. ويطربني أن أطيل النظر إليها وهي تحترق.

قال ألبير ضاحكاً:

- من أين أتتك هذه الخلة، خلة التلذذ بالقسوة.. لم أكن أعرفك تطرب لمرأى الحريق.

قال ناني:

- الحياة. يا ألبير قاسية وهي التي علمتني القسوة. الحياة أمي وعنها تلقيت الدروس..

قال ألبير:

- إني أحس بمتاعبك عن بعد ولهذا جئت اليوم. إن هذا إحساس غريب. أشعر بضيقك وفرحك كما أشعر بنفسي. حقيقة أن مشاغل الحياة تفصلنا. ولكني أفكر فيك دائماً. أتتبع أخبارك دائماً. وأحلم بك دائماً. وقد رأيتك في حلمي ليلة أمس في صحبة سمراء فاتنة ممشوقة. أهذا هو الضيق يا ناني؟

أجاب ناني:

- أتذكر قصة "سيسيل باسكييه" التي قرأناها معا على بلاج بور سعيد. كنت تتمنى أن توجد مخلوقة بهذا الوصف, وكنت أنا أقول لك إن هذا مستحيل. لقد عثرت على سيسيل يا ألبير فنانة.. طيبة.. نبيلة.. قوية ولكنها محوطة بالذئاب بل هي نفسها تحب مناوشة الذئاب. لقد عثرت عليها، أتذكر تجاربنا المرة مع هذه وتلك. نحاول أن نرفعهن فيأبين إلا خفضاً. أتذكر حبي الأول. أتذكر كيف كان عنيفاً دامياً. أتذكر كيف استغرق صباي وشبابي بأجمعه. أتذكر كيف خلقت مني رجلاً. وخلقت منها آلهة وأجلستها على عرش مرتفع مقدس. أتذكر كيف انتهى هذا الحب. حب أعوام يتلاشى. في لحظة كالهباء ويختفي اختفاء الفقاعة... وأنت يا ألبير. نسيت حبك الأول. أين ايلين الشاعرة الساحرة الجميلة. إيلين التي جعلتك أعظم طبيب في مصر أين هي الآن؟ هجرتك بلا سبب.

فقاطعه ألبير قائلاً:

- بلا سبب. وبسبب. بلا سبب خاص. ولسبب عام تشترك فيه النساء جميعاً، أن نبع حبهن فوراً يرتفع في أمواج فجائية. ويهبط في انخفاضات فجائية. ثم يهدأ. ثم يعود جياشاً دافقاً ثم ينحدر. هذا حب المرأة يا ناني.. أما نحن. أعني أنا وأنت.. فحبنا متصل دائم الموج، تقويه وتنفخ فيه روح دائمة النار في غير اندفاع. ثم إليك سبب عام آخر. أن لكل امرأة شخصاً آخر يظهر على حين فجأة وبغير انتظار، شخصا يقدم لها ما ينقصها من الطعام الذي نقدمه نحن لها على مائدتنا المتواضعة. إن الذي اختطف منك حبيبتك التي أفنيت شبابك فيها هو آخر شخص يصلح لها وتصلح له. وأنا،

وهنا توقف عن الكلام وقد بدا عليه الانفعال ثم استطرد قائلاً:

- أنا. لقد اختطفها مني باشكاتب صاحب أملاك.. ولكني على يأسي لم أزل أطمع في أن أعثر على سيسيل باسكييه. لم أزل أحلم بها ولو مرة واحدة في العمر قبل أن ينتهي العمر. لحظة واحدة. يوماً واحداً. قبل انقضاء الأجل إني أحسدك على حسنك حظك. أحسدك على أنك عرفت.

وسكت قليلاً، فصاح ناني في شبه زهو وانتصار.

- زازا.. زازا

فردد ألبير الاسم بفرح:

- زازا. اسم رائع.ولكني أرجو مخلصاً ألا تخبرني بعد شهر أن زازا ذهبت. بلا سبب.

هنا دخل الباشكاتب.. فقطع حبل الحديث، وأقبل نحو المكتب مهرولاً. وهمس في أذن المحامي قائلاً:

- الأفندي المدرس اللي له قضية.

فقام الدكتور فانوس مستأذناً وهو يعد صديقه بزيارة قريبة.

ودخل الأفندي بعد قليل. كان يمشي مسيطراً عاري الرأس. وقد بلغ شعره الكثيف. وامتدت سوالفه إلى أدنى من أذنيه. وكان يضع في طرف شفتيه بيبة مكسورة.

أومأ بيده إيماءة التحية وجلس في وقاحة ظاهرة. وقال ناني، متكلفاً الأدب:

- أهلا وسهلا بالأستاذ. القضية ماشية كويس ولو إن خصمك متعب فإنه رجل له مركزه في البلد وأنت تعلم ما يمكن أن يصنعه في مصر رجل متصل بالكبار. رجل له علاقات متعددة، ثري يعني بالمظاهر.

قال الأفندي مقاطعاً:

- مظاهر كاذبة.فهو مثلاً يحب أن يجلس في جروبي دائماً ومعه واحدة اسمها زازا حلمي.

فانتفض ناني انتفاضة واضحة. وأخرج منديلاً يمسح به عرقه المتصبب.

إن القصة بينه وبين زازا لما تكد تبدأ، ومع ذلك فها هو الشخص الآخر الذي أشار إليه ألبير يطل برأسه من أول الرواية. ومن الذي يقدمه. هذا الأفندي الدساس الحقير. ولكنه دساس بدون أن يعلم لأنه من أولئك الذين يلقون بالوقيعة "على الماشي".. كما يلقي الصبي حجراً في الماء وهو يلهو. عقرب تقدم سماً طبيعياً فيها.

ولم يستطع ناني أن يستزيده بالرغم من أن الطبيعة الإنسانية المبنية على التطلع تدفعه دفعاً لهذا، غير أنه كان يأبى أن يأخذ الحقائق من هذا الفم القذر. فوقف ومد يده مسلماً مؤذناً بانتهاء المقابلة.

ولما خرج الأفندي الحقير. ارتمى ناني على الكرسي وقد أحس بسقف الغرفة يهبط نحو أرضها ليسحقاه، بينما زازا المثقفة. الرفيعة التفكير والعاطفة، ترى في جروبي مع بعجر بك المعروف في القاهرة كلها بحوادثه مع النساء. وغرامياته الوضيعة.

وتناول ناني في النهاية طربوشه في ضيق وعصبية، ودق الجرس فجاءه سيد. فأخبره بأنه منصرف الآن وأنه لن يقابل أحداً اليوم.

وأسرع بالخروج في تعثر واضطراب.

3 زازا.. من هي؟

- زازا.. زازا..

- جرى إيه يا لولي

- يا أبلة جماعة جايين من البلد ومعاهم راجل عيان.

- نزليهم البدرون

- عايزين يشوفوكوي انتي

- مش فاضية يا ليلي... عايزة أشوف الأكل وعايزة ألبس بسرعة وأخرج لأن عندي حفلة موسيقية. وعايزة أفوت على البنك. وعايزة أمر على خالتي لأنها عيانة.. و..

وهنا توقفت زازا قليلاً وقد لاح لها شبح رجل وميعاد.

ولكن هؤلاء الصعايدة..؟

لابد أن تذهب للدكتور فانوس الطبيب المعروف ونظرت في ساعتها الصغيرة فأدركت أن ميعاد ناني يقترب فنادت لولي وقالت لها:

- لولي.. انتي كبرتي.. دلوقت يمكنك تشوفي حاجات البيت وتخرجي تروحي البنك عشان تصرفي الشيك. وأنا سآخذ الصعايدة للحكيم..

قالت هذا وهي تخاطب لولي من أعلى الدرج، درج المسكن الصغير المنفرد في جانب من حوش البيت الكبير.

وكان هذا البيت الكبير واحداً من عشرات البيوت في شبرا. احتفظ بالتراث القديم العريق. بيت كبير. وفناء ومنزل صغير إلى جانبه وسور مرتفع ثم حديقة.. وبوابة خشبية كبيرة ذات سقاطة. واحد من عشرات البيوت التي

احتفظت بالطابع القديم. والتي كلما ازدادت تهدما وبلي تفردت بمظهرها الوقور بين بيوت الحى الحديثة النعمة التي تقف بجانبها كما يقف الخدم جديد والثياب أمام السيد الوقور.

وكثيراً ما يدور الجدل بين أفراد الأسرة حول البيت الكبير أيبيعونه أم يحتفظون به.. فتنتهي النتيجة دائماً إلى الاحتفاظ به ولو بقي مهجوراً وهذا هو نفس ما حدث في أسرة زازا. لقد كان عمها في أبي تيج هو المتولي شئون الأطيان. كان يلح في بيعه أو استبداله. ولكن زازا كانت تعارض بشدة. وكيف تتخلى عن تلك الذكريات؟ عن ملاعب الطفولة وعن غرفها التي احتضنتها كصدر دافئ حنون.

بالأمس فقط دار الحديث من جديد بين أفراد العائلة حول هذه النقطة فأخذت زازا تلين لينا غير معتاد للمرة الأولى في حياتها. وذلك لأنها صارت ترى أن حياتها – بعد أن عرفت ناني ستتغير وسيتغير مسكنها كذلك. ولو أنها كانت تفضل ألف مرة لو أن ناني رضي ينتقل إليها... فتحتفظ به. وبذكرياتها المقدسة في هذا الركن الغالي من حياتها.

وها هو هذا الركن فن.. وكتب في كل ركن آية من آيات الفن، وكتاب ملقى، صورة نوتة موسيقية. آلة موسيقية، كتاب اجتماعي، ديوان شعر. علم نفس. تاريخ. سياسة.. هذا هو ركن زازا. وهو صورة واضحة لحياتها.

وكانت زازا زعيمة هذه الأوركسترا. تحمل عصا الماريشالية وتدير بها الجوقة المكونة من أختيها وبعض الأقارب. وطالما شوهدت وقد انتصب قوامها الرائع وارتفع جبينها الأشم. وهي ترتدي ثوباً أنيقاً بسيطاً وتحمل حلقة المفاتيح. وتدير الإدارة كلها بمختلف ألوانها حتى المطبخ. كانت زازا كل شئ، يشعر كل إنسان أنه يمكنه أن يعتمد عليها وإذا ما اعتمد عليها فإنما يعتمد على قوة لا تهن ولا تخون.

ولكن الذي يتأمل في قوامها النحيل. والذي يتطلع إلى يدها وهي تضع منديلها على أنفها – والذي يستمع إليها وهي تسعل سعالا خفيفا.. والذي يرى وجنتيها المتوهجتين الذابلتين، يرى في كل هذا أثر وعكة وما زالت تعانيها.

ويـوقن أن وراء الضـعف الجسـدي حيويـة ترتفـع بهـا فـوق الأسـقام والعلـل كـأن الضعف يجرها إلى الوراء، والحيوية تـدفعها إلـى الأمـام بقـوة خارقـة. وهـي ككـل الأقوياء تشعر بهذه القوة. ولكنها مـع ذلـك قـد بـدأت تحـس بالضـعف والتخـاذل أمام قوة جديدة لم تكن تتوقعها. ولم تألفها فيما مر بها من الأحداث. تلك هـي قوة الحب الجديد.. قوة ناني الضعيف.

عندما تهاجمها هذه القوة. تتماسـك وتضـع يـدها علـى جبينهـا – كـأن هناك مركز دفاعها – وتهمس قائلة: لا لا.. وإذا كان فـي يـديها ورقـةٌ مزقتهـا. أو منديلاً عصرته في عنف شديد. ثم تجلس في الشرفة وتتطلع إلى الفضـاء وتغنـي غناء خلي البال.

كانت زازا في دائرتها الصغيرة تحمل هموماً كبيرة بل الأصـح أن الـذين حولها كانوا يحملونها همومهم فتقبلها كأنهـا همومهـا بالـذات. فهـذه مريضـة تستشيرها في مرضها، وهذه أم لم تجد لطفلها مكانا في المدرسة. وهـذه قريبـة لهـا ذات مشـكلة تـرى حلهـا عنـد زازا أو عنـد رأيهـا. ولـم يجـدها نـاني ذات مـرة مهمومة لمسألة تهمها هـي بالـذات. ولا باكيـة إلا علـى أحـزان قلـب غيـر قلبهـا. فكان يغار كالطفل مـن الـدموع التـي تضـيعها زازا فـي غيـر مـا بينـه وبينهـا مـن الشئون، وكان يعيرها بأن هذا الإحساس الشاذ ضعف. وضعف لا يليق.

وكان يقول لها إنها تجربة مؤذية. وحقيقة كانـت زازا تلقـي بقلبهـا فـي نار التجربة غير حاسبة حساباً لمـا وراءهـا فـإذا انحسـرت التجربـة عـن خيبـة مـرة. عللت نفسها بأنها اكسبتها غنى في المعرفة.. وثروة في الفهم. أما الخيبـة فهـي لا تحس بها. وأما الإساءة فلهـا ألـف غفـران. كأنمـا كـان قلبهـا يبتلـع آلام النـاس وآثامهم ليدفنها فـي غـور سـحيق بعيـد القـرار. ويهيـل عليهـا تراباً مـن الرحمـة والرضوان... فلا تسمع منها غير والله راجـل طيـب. والله سـت أميـرة، وقـد كانـت هذه الخلال تنساب في دمها في غير تكلف أو رياء، تنساب في عروقها كما تنساب في حياتها.

وكانت تسخر من ناني وهو يعيرها بهذا الضعف الإنساني ومن العجيب أن هذا الضعف الإنساني.. الذي كان هو الآخر ينساب في دماء ناني – كان المغناطيس الذي يجمع بين قلبها وقلبه. كان السر الخفي الذي يقيدها به.

كان ناني يثني ويغفر وينسى ويرحم دائماً وكانت هي بدورها تعيِّره بهذا. وطالما قالت له:

يا ناني. إن هذه طباع ملائكية، نادى بها عيسى وهي غريبة على هذه الأرض الجاحدة الكافرة.

فيجيب ناني:

ولكن الكفار يذهبون.. وعيسى يبقى.. ومبادئه

فتصيح معترضه:

لقد حان الوقت لأن تراجع نفسك. أحقد. خاصم.. انتقم. أضرب. حطم..

فيتأمل ناني الفم الجميل العذب الذي يهدر بهذه النصيحة، الغدير الصافي الذي يحبذ إلقاء القذى ويجيل طرفه في الملائكية المجنحة التي تشير بالفتك والتحطيم، يتأمل كل هذا ثم ينفجر ضاحكاً ضحكة مجلجلة من الأعماق.

إن "الراهبة" زازا.. نذرت نفسها في دير الحياة. نذرت نفسها لإسعاد أختيها، وكانت لها بمثابة الأب والأم والأخ والصديق وكانت تتغذى من هذه العواطف، وتعيش عليها كما يعيش الشعراء على الضباب والقمر. فقلما شوهدت زازا وهي تتناول الطعام تناولاً جديا. كانت تقنع برؤية الآخرين يتمتعون بشهي الطعام. أما هي فقد عاشت على هذه الصورة. وتغذت وشبعت. كانت تعيش على عواطفها، وتعيش على تفكيرها وقراءتها. فإذا فرغت من كتاب وضعت عليه أول حرفين من اسمها "ز.ح" ثم أودعته مكتبتها بتقديس واحترام.

كانت ميمي الأخت الصغيرة الفنانة لم تزل تغط في النوم وقد تعمدت زازا ألا توقظها.. وأمرت الخدم أن يدعوها تأخذ قسطها من النوم. وكيف تدعهم يزعجونها وقد سهرت تخيط ثوباً لزازا حتى مطلع الفجر. ولكن ميمي كانت تستيقظ على خطى زازا مهما ثقل عليها النوم. واليوم سمعت خطى أختها وهي تنصرف خارجة، فوثبت من فراشها وثباً ثم صاحت:

- على فين يا أبلة..

فقالت زازا عاتبة بلطف:

- ارجعي لسريرك يا ميمي.. وأكملي نومك فقد سهرت كثيراً..

قالت ميمي وقد تطلعت لوجه زازا الشاحب:

- ما أقدرش أساعدك في حاجة..؟ إنتي تعبانة.

فقالت زازا وقد وضعت يدها على جبينها:

- ما تقدريش يا ميمي..

وأحست بالتضعضع الذي يعتريها عندما يمر خيال ناني ببالها. وأمسكت بحاجز السلم. فصاحت ميمي مرتاعة:

- أبلة ! أبلة !

وتظاهرت زازا بالقوة والتماسك. وقالت:

- أنا رايحة مع الصعايدة للحكيم وراجعة..

قالت هذا ونزلت السلم مسرعة.

دخلت لولا غرفة ميمي وقد ارتدت فوطة المطبخ وقالت:

- يا ميمي.. عايزة أكلمك في حكاية زازا..

فقالت:

عارفه.. مش قصدك حالتها الغريبة، وسهرها، وشحوبها.. شفتي الكتب الجديدة اللي معاها؟.. عليها حرفان دائماً.. ح. ن .

ثم جلست لولي على طرف السرير. وأخذت تحسب مع أختها من يكون ح.ن.. حسن نجيب؟ حمدي نصرت؟ حلمي نوفل؟ حامد نسيم؟

إن حسن نجيب متزوج من أربع نساء. وهو مزارع في العزبة. وحلمي نوفل ناظر العزبة شيخ في السبعين. وحمدي نصرت مأذون شرعي وحامد نسيم معلم إلزامي.

فضحكتا. وقالت لولا:

- إن "ح.ن" هذا ليس من العائلة. ولكنه على كل حال صنع صنعه بأختنا وغيَّرها كل التغيير.. لقد تضاعف عمرها. وقل ضحكها الصادر من الأعماق، وبدت

ظلال تحت أهدابها الجميلة. وصارت تتأخر في المساء. ولا تنام الليل. وتستيقظ مبكرة، ولكن متعبة شاحبة. ثم إن عينيها لا تفارقهما غمامة من دمع غير منسكب.

فأضافت ميمي:

- وأصبحت تنام بثيابها، وتخطئ في الحساب، وتنسى، وتخلط في الأرقام، هذا خطير جداً يا لولي. هذا، أخطر من أن يكون حباً. إن الحب فيما قرأنا وسمعنا لا يكون مثل هذا ولكن خوفي يا لولا هو من أن يكون "ح.ن" هذا غير جدير بحبها.. خوفي ألا يكون مستحقا لهذه اللؤلؤة.. وأخشى أن تخوض هذه اللؤلؤة مستنقعات الدنيا ومياهها الآسنة العفنة..

وحجبت عينيها بيديها وهي تصيح بصوت مسموع:

- مسكينة ياأبلة زازا..

فأجابها صوت من بعيد. وكان صوت زازا، عائدة:

- مسكينة على إيه..

ودفعت بقوامها المرهف إلى الأمام.. وهي تصعد الدرج لتثبت لنفسها ولأختيها أن زازا لا يمكن أن تكون مسكينة.

4 ناني.. من هو؟

"البيت الكبير" في العباسية. الطراز القديم. بيت، سلاملك، فناء، حديقة، سور، بوابة كبيرة خشبية ذات "سقاطة".

قام بيت ناني في هذه البقعة من حي العباسية منذ سبعين عاماً. وكان ناني بك جد العائلة تركياً، نزح من استانبول، وتزوج بمصرية، وصاهر عائلات مغربية وشامية. إن ناني الحالي تركي مصري مغربي شامي، وأغلب المصريين اليوم قد تعددت أصولهم وتعقدت على هذا المنوال.

وهذا مما يؤسف له لأن الباحث عن مصرية أصيلة صالحة للدرس قد لا يجدها في يسر وسهولة.

وكان ناني نفسه حين يتعمق في التحليل والبحث كعادته ويشرع في استكناه أغوار طبيعته، وميوله، واتجاهاته، يظفر بالأعاجيب.

فهو قد أخذ من الطبيعة المصرية انغماسها في الأحلام واستسلامها للقدر، وقد أخذ من الطبيعة التركية التمادي في الكبرياء حتى الموت، وأخذ من الطبيعة الشامية شاعريتها المحلقة وقممها البيضاء المغطاة بالثلوج، وأخذ من الطبيعة المغربية ميلها إلى السحر والتنجيم، وحب البخور.

سأله أحد أصدقائه الأذكياء ذات يوم:

هل أنت يا ناني مصري أصيل، فأجاب ناني:

أنا الآن مصري مائة في المائة البيئة والمناخ والتربية والمدرسة والمجتمع. لقد أندمجت كل هذه العوامل كل تلك الأصول المجتمعة في دمي.

وصاح الصديق معترضاً: كلا يا ناني لقد أدركت هذه الأصول الغريبة فيك من شيئين، كتابتك وأنفك. والواقع أن النزعة الأدبية عند ناني كانت من نوع ثان. فقد كانت الألفاظ تتردد في خياله كألفاظ خالصة وإن كانت تبتدع لنفسها رسوماً وصوراً ثم تأخذ في تكوين فرقة موسيقية، هكذا كان الأدب في ذهن ناني.. رسوماً وموسيقى.. ولكن هذه الصور وتلك الرسوم، كانتا غريبتين عن أي شئ في مصر. فالصور كانت أبداً تفد عليه من آفاق مجهولة مقترنة بقمم وثلوج وصحارى وهضاب، وكانت الموسيقى تقع في أذنه وكأنغام تعزف بها أيدٍ خفية بعيدةٍ بعيدةٌ. ولقد صح ما وجهه النقاد إليه هو أن "تفكيره أجنبي وخياله غريب" كان النقاد يوجهون إليه هذا النقد وهم في الواقع لا يعلمون – كما يعلم – السبب الدافع لهذا.

أما الأنف فحكاية أغرب.. فإن الأنوف المصرية أقرب إلى الصغر، وأقرب إلى أن تكون فطساء، وطالما تذكر ناني أنف زازا الأشم الواضح. إنه أنف روماني، الوجه وجه نفرتيتي، والأنف أنف كليوباتره.. لا جدال في أن صعيدية زازا- كمصرية ناني – لم تكن خالصة. وإلا فمن أين اكتسبت زازا ذلك العناد الضخم؟ في بلاد تغلب عليها السادة والمستبدون. إنها لم تحن رأسها يوماً لأحد، ولا لشيء.

كان ناني يسكن مع أخته وأولادها.. قام على تربية الأولاد بعد موت أبيهم مباشرة وانتقلت أخته بهم إلى البيت الكبير فعني ناني بهم وبها، وأضرب عن الزواج، أضرب لسببين الأول واجب نحو أخته، والثاني لتجارب مُرة عكرت صفو حياته، وجعلته لا يذكر المرأة إلا بحذر، ولا يعاملها إلا بحذر.

ولعل معاشرة أخته أضافت حذراً إلى حذره، فقد كانت للصلة التي تربطها به تفرض عليه رقابة الزوجة، وتحاسبه حساب الزوجة، وتغار عليه غيرة الزوجة، وكان بناتها – إن أمينة لم تنجب ذكوراً – ينادين خالهن بيا "بابا".

كانت أمينة جميلة حقاً. ولكن هذا الجمال "جمال اصطلاحي" كما كان ناني يدعوه. يعني أنه من الجمال الذي اصطلح الناس على مقاييسه. وقد كان يحمد الله على أن أمينة أخته، وليست زوجته. فهي قد كانت نصف أمية، وفي رأيه

أن هذا أسوأ من الأمية الكاملة لأن أمينة تفهم الأمور نصف فهم، وتحل المسائل أنصاف حلول، وترى نصف وجه، وكانت ترى النصف المشوه دائماً.. ثم إنها كانت مادية... مادية تعيش في المادة وتغرق فيها لآذانها. ومثلها الأعلى في الحياة المادة والترف والنعيم. أو بحد تعبيرها هو الشباب والسيارة والفيلا الأنيقة والثياب والسينما.. أما الشباب فقد تخطته، وأما السيارة فقد صارت فوق مستوى العائلة المصرية المتوسطة، وأما الفيلا الأنيقة فحظها حظ السيارة، وأما الثياب وأما السينما فقد استنفدا ما لدى المسكين ناني الذي عليه أن يدفع لشملا وشيكوريل وعمر أفندي، يدفع، يدفع، صامتاً!

إن معاشرة أمينة خيبت ظنه في مثله العليا وطبعته بطابع من حزن عميق جداً. حزن تأصلت جذوره في أعماق نفسه، وكان يخفي هذا الحزن بالمرح الجم، والقهقهة العالية، والسخرية اللاذعة والنكتة البارعة. فكان أغلب الناس يحسدونه على هذه الضحكة المجلجلة من الأعماق، ويتمنون نبرة من صوت ذلك الجرس المرن.. ولكن زازا وحدها لم تكن تنخدع مطلقاً بهذا الدوي. وكانت تستشف في أعماق هذا الضحك أغواراً سحيقة من الأسى الدامي..

شتان بين زازا وأمينة.. إن زازا عندها ذكاء قلب، وهذا أعمق وأقوى من ذكاء الفكر. أما أمينة فتؤثر – حتى إن فهمت – أن تتغابى وهذا التغابي يحل أكثر معضلاتها.

زازا لم تعرف الكره في حياتها. ولكنها كرهت أمينة، كرهتها من قبل أن تلتقي بها، وكانت أمينة تكره ظل أي شخص يحوم حول ناني، فكيف لو كان امرأة؟

لقد شمت ذات يوم عطراً غريباً على ثيابه فخاصمته أسبوعاً لا تكلمه.

وحلمت ذات ليلة أن ناني يركب سيارة مع امرأة فقامت من نومها غاضبة وأشبعته لوماً وعتاباً.

كان ناني يعيش في هذا الجحيم، جحيم الأمية والمادة والغيرة والسطحية، ويحمد الله دائماً أن أمينة ليست زوجته. وأنها قد تتزوج يوماً ما وتنتقل بجحيمها لسواه.

ولكن متى تتزوج وبناتها في سن الزواج ولم يتقدم لهن خاطب بعد.

فتيات حسان مهذبات مثقفات، ولكن الأيام تروح وتجئ، ولا يتقدم لهن خاطب.. لماذا؟ أيكون ذلك لأن أختـه لطباعهـا، بأنانيتهـا وحبهـا لنفسـها، نفـرت عنها العائلات التي تبغي المصاهرة! أيكون ذلك لأنه ليس غنياً؟ أيكون ذلك لأنـه هو بالذات محدود الأصدقاء حريص في اختلاطه بالنـاس! هـو لا يـدري بالضـبط، وإنما يؤمن بشـئ واحـد، أن أمينـة لـن تتـزوج وأن بناتهـا لـن يتـزوجن وأنـه هـو سينتظر القدر.

والقدر خطـاه بطيئـة ومياهـه راكـدة.. ولكـن هـا هـي زازا تعصـف عليـه فجأة.. تلقي القدر بها وبحبها في سبيله كالإعصار الجارف. كـل شـئ بينـه وبينهـا سار بسرعة، لم يدع مجالاً للتأمل والتفكير. وهـو إلـى الآن لا يعـرف عنهـا إلا أنهـا فتاة كاملة وأنه تحبه حباً عنيفاً، وهي لا تعرف عنه إلا أنه المحامي نـاني، رجـل ذو مركز أدبي واجتماعي، ولكنه فقير، فقير جداً.

ثم إنه رجل تخطى الشباب بكثيـر، وأمـا هـي ففـي أول مراحـل الشـباب.. وهذه مسألة هامة.

حقيقة أنها هونت عليه المشـيب، وذكـرت لـه أنهـا لا تهـتم إلا برجولـة الرجل.. ولكنه في أعماق نفسه يعتقد أن هذا كلام...

كان ناني مستلقياً على فراشه في الصباح الباكر يفكـر فـي أن مـا تقولـه زازا من أن الحب يمحو الفروق في الأعمار، كلام.. كلام..

دخلت أمينـة فجـأة كعادتهـا كأنهـا تقـتحم ميـداناً، وقـد عصـبت رأسـها بمنديل أحمر جعلته إلى جانب وجلست على طرف السرير، وأشعلت سيجارة وقالت "اسـمع ياخويـة". وعنـدما كانـت تقـول "إسـمع ياخويـة" يتأكـد نـاني أن عنـدها "طلبات".

لقد كان ناني يعرف ما تريد قبل أن تتحدث. فإن الإنسان كلما كان أميـاً كان آلياً، أي أنه يكرر حركات بعينهـا لا تتغيـر. فالمحصـول الحيـواني الأمـي قليـلٌ محدود. بخلاف المحصول الإنساني الذكي فإنه دائم الابتكار دائم التغيير.. وحتى

محصول الكلمات.. إنه في الأميين كما هو في الأطفال، محدودٌ، متكرر، يتنقل في دائرة صغيرة..

هكذا كانت أمينة، إذا بكرت في القيام فهناك "طلبات" أو "خروج".. وإذا جلست على كرسي خاص في الصالة فهناك خناقة وإذا لبست المنديل الأبيض فهناك استعداد "لنوبة مغص".. وهكذا وهكذا..

- إسمع ياخوية.

- خير يا ميمي.

- عايزين نغير طقم الصالون.

- إنزلي "لعلي خليل" وشوفي اللي يعجبك.

- أنا نزلت وشفت.

- لقيتي إيه؟

- طقم بثلثمائة جنيه.

- غالي.

- إزاي غالي ده أرخص حاجة هناك.. يروح فين جنب أودة الصالون بتاعة زوزو.

- كل واحد على قده.

- قصدك تقول إن ما عندكش. دايماً ما عندكش! أنا عارفاك لما أطلب أنا يبقى مفيش، وفلوسك ضايعة بره كلها.

هنا دخلت صفية الأبنة الكبرى، وتبعتها عزيزة الإبنة الثانية، وليلى الإبنة الثالثة وفي ذيلهن الصغرى حسنية. دخلن جميعاً كأنما كنَّ على ميعاد وقلن في نفس واحد:

- صباح الخير يا بابا..

- صباح الخير.

وقبلهن ناني واحدة واحدة، وجلسن بقرب أمهن كأنما ألفِن جبهة واحدة وقالت صفية:

- يا بابا أودة الصالون بقت قديمة خالص.

- ماما قالت لي.

- مش تنزل تتفرج عليها.

وتململ ناني وقد شعر بوطأة الهجوم، وشرد بصره للسقف ليحسب كم عنده في الدرج لا في البنك، يكفي لشراء غرفة صالون، ويكسو البنات وينفق على مزاج أمهن. لا شئ.

ولكن من الذي يصدق؟

لا أحد.

هنا دخل السفرجي حسنين معلناً أن زائراً قد حضر، فقطع حبل الحديث وأنقذ الموقف.

5 عند الدكتور فانوس

اصطحبت زازا مرضاها إلى عيادة الدكتور ألبير فانوس. ولم تكن هذه أول مرة تصطحب فيها زازا مرضاها لهذه العيادة الشهيرة. فقد كانت تعرف مهارة الدكتور فانوس، وإنسانيته، وسعة صدره فكانت تثني عليه ولا تفتأ تحمل الناس على استشارته والاستفادة من علمه. وكان الدكتور فانوس يعرفها جيداً، ويحلها في نفسه مكاناً رفيعاً، وطالما تلمس العلل لاستبقائها في العيادة طمعاً في حديثها الساحر وأسلوبها الممتاز.

ولم يكن فانوس يعرف علاقة ناني بزازا.

ولم تكن زازا تعلم العلاقة التي بين ناني وفانوس. كان الوقت ظهراً، والعيادة مشغولة، وكل الأماكن محجوزة مقدماً. غير أن زازا كانت تستثنى دائماً. وطالما أثارت حسد المرضى حين يخرج لها الدكتور بنفسه فيقول مشيراً إليها "اتفضلي يا ست زازا". في هذا اليوم لم يكن بالعيادة موضع لقدم، ولم يكن الدكتور قد حضر بعد، فقد أخرته أشغاله الكثيرة في الخارج. فتعمدت زازا أن تجلس بحيث يراها وهو داخل.

فما مضى إلا قليل حتى وقفت سيارة بالباب ونزل منها الطبيب الذي أقبل يمشي هادئاً وقوراً على أنه لم ير زازا حتى صاح فرحاً زازا.. تعالي.

فتطلع المرضى واشرأبت أعناقهم، وتهامسوا فيما بينهم "من هذه"؟ فقال لئيم منهم بصوت منخفض "حبيبته" فسمعته زازا وهي تدخل الغرفة فنظرت إليه نظرة من نار.

دخلت زازا "غرفة الكشف" وتبعها مرضاها، كانوا صفاً طويلاً، هو الموكب المعروف الذي يزف مريض الريف.

أخذ الدكتور يسأل مريضه، وكان من عادته الدقة المتناهية، والإحاطة الشاملة. كل ذلك في هدوء واتزان وصبر عجيب. لم يكن يعنى أن يحيط بأمر المرض بل بأمر المريض. وأدرك زازا الملال، فأخذت تقلب بضع كتب وجدتها على مائدة قريبة، ووقفت فجأة وقالت "حسين ناني" فاستمع إليها الطبيب وهو جار في فحصه، ولكنه تمهل كأنه لم يسمع. فلما انتهى من فحصه الطويل وجه الحديث إلى زازا قائلاً "اسمعي يا ست زازا.. المريض عنده تضخم في الطحال والكبد.." والواقع أنه أهمل حتى جاءه استسقاء.

فقالت زازا اللبقة "وهل إذا كان بادر بالعلاج، لا يصاب بالاستسقاء.." أم الاستسقاء نتيجة حتمية لهذا المرض. إني قرأت هذا في كتاب طب عند أحد أقربائي".

صاح الدكتور ضاحكاً "أنت عجيبة يا زازا تعرفين كل شئ، وحتى الذي تجهلينه يمكن أن يرشدك ذكاؤك إلى كثير مما يتعلق به.. هذا المرض لا يحتاج لأكثر من تقوية وحقن أسبوعية لتخفيف سائل الاستسقاء.

قالت زازا "لقد قرأت في الأهرام مقالاً عن طريقة جديدة لتجفيف هذا المرض لا لتخفيفه".

قال الطبيب: أعرفها وقرأت عنها ولكنها في دور التجربة والدواء المقوي الذي كتبت له عنه فيه هذه الصفة، وهو تعويض كبير عما نزف منه من الحيوية، والضعف الذي يحدثه الاستسقاء، ثم استطرد هامسا

"على فكرة.. ليه اندهشتي من وجود كتاب حسين ناني... تعرفيه.." هذا صديقي الحميم.

قالت زازا: أجل أعرفه جيداً.

قال الطبيب إذن تعودين إليَّ في فرصة أخرى لنتحدث.

قالت بسرعة سأعود بمرضاي إلى البيت ثم أرجع إليك، فتكون العيادة قد انتهت.

قال لابأس وسأنتظرك لنشرب فنجاناً من القهوة معاً.. ثم صاح بالتمرجي قائلاً: يا علي.. ست زازا راح تيجي بعد العيادة. خليها تدخل بسرعة...

خرجت زازا بمرضاها، وفي فكرها دوامة تصرخ "حسين ناني حسين ناني".

يا ترى ما الذي يعرفه الدكتور فانوس عنه.

شد ما تحب أن تعرف كثيراً عن ماضيه. كثيراًجداً.

عادت زازا قرب المساء وكانت العيادة على وشك الانتهاء، فسألت التمرجي علي: أهو تغدى الدكتور؟ قال ضاحكاً: ساندوتش وبرتقال.. كل يوم كده.

قالت زازا.. . وقهوة وسجاير...

قال علي: حياخذ إيه من كده، لاحظي يا ست زازا إن كله رايح. يأخذ من ناس يصرف على ناس! فكرك إن العيادة كلها بفلوس؟ أصحاب، وأصحاب أصحاب، وقرايب، وقرايب القرايب، وعمال، وصناع، وأهل فن، وأرباب ديانات من كل ملة... شئ مالوش آخر. كده ومش ناوي يتجوز، مش عاوز يعمل له بيت. شغل، شغل مش عيشة، ولوى بوزه ومشى غاضباً.

كان علي التمرجي ملازماً للدكتور فانوس من أيام قصر العيني، لزمه في الأرياف، ولزمه في القاهرة. ولا شك أنه من ذلك النوع الذي يضمر وفاءاً أبدياً.

دخلت زازا بعد انصراف المرضى، فوقف لها الدكتور فانوس باحترام. فأدركت في وقفته الإعياء والكلال. ولمحت الظلال التي تحت أهدابه، وخيل لها أن صلعته زادت لمعاناً، وجبينه زاد اتساعاً.وخيل لها كذلك أنه عجوز جداً. وطيب جداً. فذمت طيبته في سرها. وأسفت على انحناء قامته. وقارنت في الحال بين هذا الطبيب وبين ناني. سنٌ واحد. همٌ واحد، إنسانيةٌ واحدة. وكادت تقول: وسِحنَةٌ واحدة. قال فانوس ببطء: "تفضلي" ودق الجرس فهرول علي مسرعاً. فقال الطبيب لا تقبل مرضى بعد الآن، وعلينا بالقهوة... ثم استطرد ملتفتاً لزازا هه يا ست زازا... عايزك تتكلمي أنا أرتاح إليك وأحب مجلسك وكلامك، وأحترم شخصيتك، ثم ضحك قائلاً: وآسف على أني لست مسلماً.

قالت زازا معترضة: هل تعتقد أن الدين يقوم حائلاً بين العقول، وبين القلوب، هذا تمرجيك اسمه علي وصديقك اسمه حسين فظهرت بادرة من الأسف على وجهه وكأنما لسان حاله يقول وكنت أحب أن تكون زازا. فأدركت في الحال ما يرمي إليه فقالت: لماذا تصرون في الحياة على خلق القيود، ماذا يمنعك من الإفضاء إليَّ بذات نفسك، ماذا يمنعك من أن تبوح بدخيلتك كما تشاء؟ هيا تكلم، إني أكره الحوائل وأمقت السدود، عندك هموم الطبيب ومشاكل الفيلسوف وعذاب الإنسان، وكد الموحش المفرد، عناء المسافر الذي لا يستريح... أليس كذلك؟

فنظر إليها معجباً، وكاد يهم أن يتكلم، فجاء علي بالقهوة فصمت قليلاً.

ثم قالت وهو يحتسي القهوة، أنت الشخص الثاني الذي فهمني أما الأول فهو...

قالت بسرعة ولهفة: حسين ناني...

قال من أين تعرفين هذا؟

قالت ألم يقل لك شيئاً جديداً، ألم يحدثك عن حدثٍ جديد في حياته، كيف ذلك وأنتما بهذه الصداقة؟

قال فانوس أجل أجل. أخبرني.. أهذه أنت؟ سيسيل باسكييه، عمود الضياء، الملاك الذي يقلم أظافر الذئاب.

أجابت مستحيية وقد علتها حمرة جميلة، "هو يعتقد ذلك".

قال فانوس وقد فهم كل شئ ظهر على وجهه، كأنما يحسد صديقه على هذا الكنز، ويأسف على أنه فقد زازا في لمحة.. ولكنه تماسك ورد في الحال فكرة الحسد السخيفة وارتفع عليها: هو سعيد بك، ويستحق، ولكنه تعس..

قالت: كيف؟ ولذ لها أن تسمع عن ناني ممن يعرفه تماماً.

قال: إن عقله وقلبه ضيعاه.. لو كان أقل ذكاء، وأقل عاطفة لما لقي من الحظ السئ ما لقي.

قالت: أي حظ تعني. إن كنت تعتقد أن قلة المال فقر، فإن ناني أغنى فقير في مصر، وإن كنت تعتقد أن المنصب الحكومي يكسب شيئاً، فأنت واهم. فإنه قد تركه زاهداً فيه، وقد كان يفكر في العودة إليه. فأقسمت عليه أن لا يفعل، ألست تراه يحمل من شخصيته "الباسبور" الذي يرفعه فوق هامات المناصب ورؤوس الحظوظ.. أنا لا أقول هذا مجاملة لأن ناني يعرف أنه الوحيد الذي لا أجامله، لأني أحبه...

قال: لا يا زازا... أقصد حظه مع المرأة.

فانتفضت زازا كمن يستعد لسماع خبر هام وانتظرت حتى يزيدها بياناً، فاستطرد قائلاً:

ليس من حقي أن أسرد ماضيه إليك، فقد يأبى ناني ذلك ولا يحبه، ولكن في سرد ذلك الماضي – على عثاره – شرف له فقد يكون الإخفاق شرفاً، والتقصير عن بلوغ الغاية نبلاً....

قالت زازا تعلق.. "هل هناك نساء كثيرات..؟"

قال فانوس ضاحكاً: بل واحدة وأشباهها... كل القادرين على حب واحدٍ كبير من هذا الطراز، وهم مساكين لأنهم يتلمسون شبيهاً للذي آنس خيالهم، وعمر أحلامهم، ثم ترك خيالهم مقفراً وأحلامهم

يباباً... يتنسمون الشبيه فيعثرون على سخافات مقنعة.. لا تنسي يا زازا أن ناني عنده خيال، وهذا الخيال يحمله على جناحه لأقصى البلاد... حتى أنه ذات مرة، رأى هذا الشبيه في الشام، فظل يطير إليه، كلما سنحت له الفرصة، حتى انكشف القناع عن سرابٍ خطير، وقد كلفته يقظته عن ذلك السراب عذاباً فظيعاً.

فتذكرت زازا أنه اعترف لها بهذا، واعترف أنه لا يزال يحن إلى ذلك الشبيه "الشامي" فعضت شفتيها قهراً وغيرة.

وأدرك فانوس أنه آلمها بالحديث، فحَّول الحديث إلى نفسه قائلاً. وهذا نفس ما حدث لي.

قاطعته زازا قائلة: لا تحول الحديث.. عد بنا إلى ناني.. قل لي.. ألم يجد في تاريخ غرامياته امرأة واحدة تستحق أن يجعل حبل مودتها متصلاً؟ وبالأصح.. ما هو السر في تركه إياهن، أو في تركهن إياه..

وتوقفت قليلاً عن الكلام ثم استطردت قائلة "هل تعرف لماذا انتهت حكاية الشامية وكيف؟ قل بصراحة.

قال فانوس: ولماذا أخدعك أو أكذب عليك. إني ليهمني أن تعرفي الحقيقة كما هي... يهمني أن تتبيني نفسية المرأة على ضوء هذه التجارب وأن لا تتوخي من هذه الحكايات غير المعرفة التي تنفعك والتي تكشف لك عن جوانب نفسك، وتضمن لك أن تجتاز سفينتك عواصف القدر والحياة بسلام.

قالت زازا ساخرة: دعنا من سيكولوجياتك. إنك وناني مغرمان بالنظريات. قل وأوجز لماذا اختلف مع الشامية وغير الشامية؟.

أجاب الطبيب وقد قطب جبينه، كأنما مرت في خياله شاميةٌ أخرى، ولماذا لا يكون ذلك أن حياته في تفاصيلها تكاد تشبه حياة ناني تماماً. والتقارب في شخصيأتهما أعجب. لقد كان يتحدث عن ناني بثقة ويقين كأنما كان يتحدث عن نفسه. قال هناك دائماً "الشخص الآخر".. وهو دائماً شخصٌ تافه.. وإن لم يوجد فإن الحب والحرص والأنانية

والخوف تجسم الشخص الآخر، وتجعل له في الخيال وجوداً وكياناً.. فإن وجد حقيقة فإنه مرة من أرباب المعاشات، يتقدم للخطبة ومعه نقوده وفي رأسه خضابه فيختط زهرة العذراء في غير عناء ولا مشقة، ومرة هو من أرباب الأعمال ينفق بسخاء، ويثرثر بسخاء، ومرة هو برأس ماله وحسن منظره وجماله وغبائه وطفولته ومرة يتجسم الإغراء في رجولة رياضية خشنة.. ومرة في ظاهرة لا تخطر على بال: أنف ضخم، ناب بارز، شعر مجعد، نمش.

فقهقهت زازا ضاحكة وقالت: عن أي صنف من النساء تتكلم؟ أجاب: عنكن جميعاً...

قالت: يا لك من قاس أكمل حديثك.

قال: وكثيراً ما لا يكون هناك غير السأم، إن المرأة تحب التجديد، وتمل الهدوء المستمر، وتبغض الحياة الرتيبة، وإن قبلت الحياة كما هي قبلتها مكرهة. وهذا الملال شئ يقبل من بعيد كما تقبل السحابة المكفهرة.. ببطء، وجهامة، وفي جو من القلق الغامض.

فقاطعته زازا قائلة:

أنظر إلى حياتي أتعتقد أني سيكون لي "شخص آخر" غير ناني؟ أتعتقد أنني سأمل؟

وهنا تندت عيناها بالدموع وكثرت الانفعالات، نظرت في ساعتها، فوقفت لتستأذن، فصافحها الطبيب، طالباً منها أن تعود إليه "ليتحدثا كثيراً".

6 العاصفة

كان اليوم يوماً عابساً من أيام الشتاء.. يوم من تلك الأيام البغيضة في مصر، وخاصة في شارع محمد علي حيث تتدفق سيول المطر، ويعلو الوحل ويتشكل حتى يكون له عروش وجيوش ولو من الطين.. يوم تهمى فيه قرب السماء، وتندفع محتوياتها أولاً كالسياط، ثم تصير رذاذاً بطيئاً يثير الأعصاب. ويسير الناس لأعمالهم وقد عمموا طرابيشهم بالمناديل البيضاء، وينتهز الغلمان هذه الفرصة فيخوضون أو يسبحون، أو يبتدعون الزوارق ليدفعوها، بعرض الأوحال أو طولها...

خرج ناني من منزله بالعباسية، فتلفت يميناً ويساراً يبحث عن تاكسي. فراعه أن لا يجد تاكسياً واحداً، فتذكر أن التاكسي كصديق السوء، يهرب منك في اليوم الممطر الموحل، فأخذ ينتظر بلا جدوى، حتى مر الترام وعليه أكداس من اللحم الآدمي.. أكداس مسكينة شقية تكتلت على سلم الترام والمطر يغمرها غمراً، والبرد يفعل فيها فعله، فتزداد تشبثاً بالسلم وتمسكاً بأعمدة الترام.

وضحك ناني لأنه وجد موضعاً لقدم واحدة على طرف السلم، فتسلقه بقدم واحدة، وترك الثانية معلقة في الفضاء وما زال الناس يدفعونه، حتى وجد نفسه واقفاً على سلم الترام بأصبعين، إصبع في العمود، وإصبع على السلم فعجب لهذه البهلوانية التي دفعه إليها الفقر دفعاً.

هذه البهلوانية الاضطرارية التي لا تجعل بينه وبين الموت غير شبر.

على أنه تأسى إذ رأى كثيرين في مثل موقفه.. كثيرين عليهم سمات النعمة السالفة، غير أنهم رقعوا أقفيتهم أو أكمامهم بقطع من القماش غير منظورة.. بلغ الترام الفظيع العتبة الخضراء..

وكان المطر قد بدأ يخف قليلاً... وأبصر ناني شارع محمد علي يلوح عن بعد، فميزه بمطره وسيوله وأوحاله.. وآثر أن يسير إلى مكتبه بحذر.. فما كاد يخطو خطوتين حتى وجد أن عليه أن يخوض، فخاض، حتى بلغ مكتبه بجهد، فخلع معطفه وحذاءه، وألصق وجهه بالمدفأة الكهربائية ثم قرب جسمه ثم مد قدميه.. وكان "سيد" يعد الشاي لسيده، والباشكاتب لم يحضر بعد.

كثيراً ما بكَّر إلى المكتب قبل المحكمة ليعد بضعة أوراق. ولكنه في هذا النهار لم يجد ضرورة إلى الذهاب لأنه لم يكن لديه قضايا هامة. فآثر أن يقضي اليوم في أعماله الخاصة.. خطاب يكتبه، محاضرة يجهزها، كتاب يتم فصلاً فيه، بحث يستوفي مراجعه، خطابٌ من زازا يعيد قراءته على مهل، خطابٌ قديمٌ يعيد إليه صورةً عزيزة من الماضي، وأحياناً ينتهز يوماً كهذا ليراجع حساباته التي كان يعتقد أنه لا فائدة من مراجعتها أبداً.

في هذا اليوم، ما كاد يستوي على مكتبه حتى قرع جرس التليفون.. وكانت زازا.

- صباح الخير يا زازا.. خير بتتكلمي بدري كده ليه؟

- مانمتش امبارح.

- ليه!

- عشان خاطرك: عندي كلام كتير. عايزة آجيلك حالاً..

- الدنيا مطر ووحل يا زازا خليها للمساء..

- بتعمل إيه دلوقتي؟ رايح المحكمة..

- لأ.

- إذن جايه حالاً..

وأغلقت السماعة بعصبية ويأس...

كان ناني أيضاً لم ينم منذ أيام، وكان عنده كذلك لزازا كلام كتير.. كتيرٌ جداً.. يدور كله حول "الشخص الآخر" فقد رآها معه آخرون غير الأفندي الثقيل صاحب البيبة المكسورة، رأوها معه في جروبي وفي السينما، رأوها تميل عليه بغير كلفة وتتكئ على ذراعه في اطمئنان كامل.

هذا ما عنده لها، سيقوله وسيعاتب ويصخب وسيطلب منها أن تكون له تماماً، وأن لا يكون بينهما ظل رجل آخر ولكي لا يكون هناك مجال للتردد، سيحدد لها موعد الخطوبة.

ولكنه عندما تذكر "الخطوبة" لاحت له أشباح عديدة من العقبات وصنوف من الحواجز، وصور قاتمة من الحوائل والسدود.. أخته، أولادها، الفقر، المرض، المكتب المقفر... هذا من ناحيته أما من ناحية زازا فهناك رأيها، فهي قد تقول لا. لأنها المرأة الوحيدة التي تجرؤ أن تقول لحبيبها لا.. والتي ترفضه وتستمر على حبه. وفوق ذلك فهو لا يعرف أحداً من أهلها هل يسافر إليهم، هل يحضرون إليه؟ هو لا يدري. هل يرسل أخته إلى النساء من أهلها.. لا يدري.

ثم تجهم وجهه وقطب ما بين حاجبيه حين علم أن الشخص الآخر ربما كان سبقه إلى خطبتها. خطبها من أهلها أو من نفسها سيَّان. إنه مهما بلغ من المركز الأدبي والاجتماعي، فهذا في نظر العائلات لا يعني شيئاً. فإن بعجر بك المقاول لا شك "يمسحه مسحا" لو همس مشيرا بالخطوبة... الخطوبة تتبعها الهدايا الغالية، والسيارة الفخمة تنتظر زازا كل يوم عند باب الدار.

أما هو.. ماذا يستطيع؟ هدية متواضعة بين الحين والحين. تاكسي يسير بهما معاً إلى مكان هادئ متواضع.. إن زازا الآن ترضى بهذا وتحبه، ولكن عندما يصير الموضوع موضوع منافسة... لكن زازا.. ألا يقف حبها القوي في طريق هذه السخافات، ألا يعصف بالمادة عصفاً.. ألا يزدري المقاول، ألا يسخر من ماله؟

سمع ناني وقع أقدام تقترب.. ها هي زازا.. دخلت زازا، وقد ابتل معطفها واحمرت وجنتاها السمراوان، وفي قوامها المستقيم انحناءةٌ قليلة، وفي عينيها الجميلتين إعياءٌ وانكسارٌ وذبول، وفي أنفها القوي كبرياءٌ جديدة.

ارتمت على المقعد متهالكة وقد خلعت المعطف والإيشارب وألقت برأسها إلى الوراء صامتة لا تتكلم ولبث ناني في كرسيه لا يبارحه...

وبدأ ناني الحديث..

- خير يا زازا...

أجابت بدون أن ترفع رأسها.

- شوف لك حل يا ناني مش قادرة على الحال ده.

- أنا اللي عايز أشوف حل... مش انتي..

هنا أدركت زازا أن عنده ما يهاجمها به، ولم تكن مستعدة لذلك، ولم تكن تعرف التهمة فرفعت رأسها وأنفها وصدرها تستعد..

- عندك إيه ضدي؟

- مين البيه بتاع جروبي وبتاع السينما، البيه الأبهة الوجيه.

انتفضت زازا وأخذت – لأول مرة- تكذب عليه. لأول مرة تحنث في قسمها على الإخلاص له... إربّد وجهها ونسيت ما كانت قادمة لأجله، وتضاءل ما كانت أعدته له جنب ما سمعته منه.

قالت: مين قال لك؟ وحياة ناني ما فيش حد.. مافيش في حياتي غيرك، ومش حيكون في حياتي غيرك..

قالت هذا وقامت من الأريكة للكرسي المجاور لناني لتحسن الدفاع عن نفسها أي ليكون قربها منه ضامناً لانتصارها، وهزيمته..

قال ناني وهو يبتعد قليلاً: زازا لا تكذبي.. إن عندي أدلة كثيرة، وأنا أحذرك.

عندما قال هذا، رأت زازا شبهاً كبيراً جداً بينه وبين فانوس، وفي لحظة خيل لها أن المكتب استحال عيادة... ورأت رأسه الأصلع الكبير مشبها رأس فانوس، وجبينه العريض وأنفه الكبير، وقامته القصيرة المنحنية. ووجهه الشاحب، وعينيه البراقتين الممتلئتين حيوية، وحتى إيماءاته في التحذير، كانت تشبه فانوس... وأبصرته، كما أبصرت فانوس منذ أيام عجوزاً جداً وطيباً جداً، ولكنها كانت تعرف أن هذه الطيبة التي لعنتها في سرها، قد تنقلب فجأة إلى

شخص عاصف، أليس هو ناني الذي أخبرها أن مظاهر السكون هي التي يخشى منها لا مظاهر الثورة.

قالت ترد على تهديده ساخرة:

ماذا تصنع لو علمت أن هناك شخصاً آخر؟

فلم يجب، لكنه فتح الدرج في سكون، وأخرج مسدساً.

فذعرت زازا، إنها لم تكن تصدق..

وأعاد ناني المسدس إلى الدرج في حركة باكية..

وفجأة تندت عيناه بالدموع، وأجهش ببكاء مكتوم...

صمتت زازا قليلاً وأخذت تنظر للأجفان المبتلة، النفس المضطرد، نظرة الانتصار.. يالله.. أيمكن لحبيب يتفانى في الحب لأقصى درجات التفاني أن ينطلق منه في لحظة ما عدو يلذ له السحق والانتصار؟ أيمكن أن يكون الحب ذا وجهين، وجه يحب ووجه يكره ويتحدى ويشمت؟ لا شك أن زازا انتصرت على ناني، انتصرت على التهم التي وجهها إليها، انتصرت على المسدس، انتصرت على طول الخط... غير أنها في لحظة واحدة طوت العدو، خبأته في أعماقها وبرز مكانه شخص حبيب، مد ذراعيه، فقابله ذراعان ممتدان من ناني وجسد يرتجف دنا إليه فعانقه، لا بل اعتصره اعتصاراً وهو ينتفض انتفاضاً عنيفاً ومدت شفة تحترق نحو أخرى ذابت من الظمأ والجوع والحرمان.. ودخل سيد بالشاي. ثم رجع.. إن ناني وزازا لم يرياه... وهو قد رآهما، فأطبق شفتيه كأنما يصر على كتمان ما رأى...

7 بعجر أفندي

ذهبت زازا.. ذهبت وتركت هدوءاً مؤقتاً، ذهبت وهي تقول ضاحكة: إن حبنا يا ناني كرصيد ثابت في البنك أقسم إثنان على إيداعه وعدم التعرض له باعتباره كنزاً مقدساً، كل ما حدث بيني وبينك لا يمس هذا الرصيد الغالي.. أفهمت.

هرولت مسرعة وهي ترتدي معطفها بسرعة، وأخرجت مرآتها الصغيرة لتهدئ خصلاتها الثائرة وسمعها ناني وهي تنزل الدرج وثباً على نفس السلم الذي شهد أول لقاء رتبه القدر بينهما..

فارتمى على الكرسي متعباً وقد تتابعت الصور في خياله، وقد أخذ يشعر أن حب زازا أخذ يطغى ويزحزح كل مسألة أخرى إلى جانب... فهو لم يعد يهتم كثيراً بأخته، كادت تنمحي من خياله حتى صارت ظلاً باهتاً وهو لم يعد يهتم بالغد، ولم يعد يهتم بأحوال المكتب ذلك الاهتمام الذي كان يضنيه ويقض مضجعه. وهو لم يعد يهتم كثيراً بمؤلفاته في القانون فقد تركها في المطابع بدون أن يسأل عما تم بها..

إن حب زازا يتفاقم. والشك يتفاقم، وأفكاره حول زازا تتفاقم حتى تتلاقى في نقطة شبيهة بالجنون.

إنها لم تخرج حتى اعتمد رأسه بيديه.. وأخذ يلوم نفسه على هذه "المشغولية الحمقاء" أين عقلي إني لا أعرف صوابه، ويهدئ الدوامة التي تدور بلا توان ولا رحمة في عقله وقلبه..

قال في نفسه: إني أكبر وأعقل من أن أستغرق في الحب هذا الاستغراق.

أكبر وأعقل من أن أهمل أمور الحياة الهامة هذا الإهمال. أين أصحابي؟ لقد قطعت حيلهم، أين أهلي إني لا أعرف أحدا منهم؟ لقد صارت بيني وبين الناس هوة سحيقة مخيفة.

قال هذا ووقف بعزم ليتغلب على هذا القدر القاسي الطاغي الذي كبله بهذه القيود الوثيقة. قام إلى مكتبه فتناول كتاباً فوقعت في يده قصة إنجليزية عنوانها "الطبيعة البشرية" موجزها أن أديباً كبيراً له صديقة من المثقفات الثريات، دعته هذه الصديقة لتمضية وقت في الريف، وأرسلت سيارتها لتنتظره، فكان السائق شاباً وسيماً جميلاً يتكلم بدلال خاص، ويشير إشارات تدل على أنه ليس سائقاً فحسب... وكان هذا الأديب كلما دخل غرفة صديقته وجد على مائدتها ببية خشبية من النوع الرخيص فلم يَدْر سر وجود هذه البيبة. حتى خطر له يوماً أن يمشي في ضوء القمر على حافة حوض السباحة الذي شيدته الأديبة الثرية لمزاجها الخاص، فأبصر السيدة والسائق معا في ضوء القمر، ففهم سر البيبة الخشبية وحمل حقائبه بنفسه واستقل أول قطار يعود به من حيث أتى..

وصاح ناني: هذا نوع من البعاجر الذين حدثتُ زازا عنهم.

ورجع إلى درجه، ففتحه وأخذ يقلب محتوياته حتى عثر على خطاب بليت حروفه، أعاد قراءته، فذكر أن هذه قصة حب لم تستغرق أكثر من أربع وعشرين ساعة، فإن صاحبة هذا الخطاب أديبة جميلة شغفت به على السماع، فأرسلت إليه تدعوه إلى الاسكندرية فلبى دعوتها، وظن أنه ظفر لديها بامرأة أحلامه، وظل سعيدا بهذا الحلم، يسير به في الاسكندرية من مكان لمكان، حتى أبصرها في حمام سباحة مع من؟ مع طباخ أحد أصدقائه.. ففر هارباً، ولبثت الطعنة تثير فيه الاشمئزاز والرعب أياماً طويلة وعادت به الذكرى إلى بعجرة أرقى من ذلك فإن "ن" كانت كلما لقيته أقسمت أن تعيش وتموت وفية له.

وهنا قام ناني إلى ركن من المكتبة فأخرج منه بقايا شمعة..

كانت "ن" هذه تحب ضوء القمر، وضوء الشموع وتقول إن في هاته الأضواء روحانيات ساحرة. لا ينسى أن "ن" تعرفت فجأة ببعجر وجيه فكان هذا البعجر يظهر في كل مكان يوجد فيه ناني و"ن" حتى اضطر ناني المسكين أن يتنازل للبعجر عنها.. تنازل مشمئزاً، ولاعناً هدوء القمر ورقة الشموع..

ولماذا يذهب بعيداً... إن "الشامية" كان بعجرها غلاماً مراهقاً جميلاً. وكذلك الفنانة التي تعرف بها في النقابة وأكبر أدبها وفنها كل الإكبار لقد كان بعجرها مخنثاً، وكان يرسل سوالفه ويقطع زراير القميص عمداً لكي تخيطها له علناً.

عض على شفتيه قهراً، وهو يكاد يجن خوفاً على زازا من سخافات الحياة وسخفائها. على أن تذكر أنه قرأ – لا يدري أين بالضبط – أنه يمكن أن يكون للمرأة عدة بعاجر في وقت واحد. أي أن البعجرة تكون مقسمة ومخففة.

تضاربت في ذهنه الآراء، وتدخل التفكير والفلسفة تدخلاً ضاراً، وصوّرا له العالم تصويراً مشوشاً مشوهاً. فحاول أن يتخلص من تلك الصور السخيفة فتراكمت عليه، وألقت على ذهنه ظلاً كثيفاً. وشعر أنه يريد أن يمد يده لينتزع زازا من هوة تعج بالشياطين. وأن هؤلاء الشياطين أقوى منه، فهم يجرونها لأسفل كلما همَّ أن يصعد بها.. حتى شعر حقيقة بمعصمه يؤلمه، وذراعه يضعف ويتخاذل في وسط هذه الزوبعة تذكر الأفندي القذر ذا البيبة المكسورة الذي وشى بزازا، إنه رمز حي للبعجرة، فهو تافهٌ جداً وضئيلٌ جداً، ومع ذلك كان ظلاً ملازماً "لفخرية" الساحرةِ الرائعةِ الجمال، و"زوزو" المعروفة في الأوساط الأدبية بالرقي والثقافة الممتازة.

كان الخوف عنده على زازا يمشي جنباً لجنب مع الاشمئزاز من هذه الحثالات.

بينما كان يعيد الأشياء إلى أمكنتها. وقد سمع أقدام زوار في الصالة، أبصر بالمسدس نائماً في ركنه، فأخرجه وقبله، متمنيا على الله أن يدور به على الظلال التي تحوم حول زازا ظِلاً ظِلاً، كل ظل يقتله برصاصته، ثم يطلقها على نفسه لأن الأرض التي تسمح بأن تطوف هذه الزعانف حول زازا لا تستحق أن يعاش فيها.

دخل الباشكاتب، وقد جاء متأخراً جداً وأخذ يعتذر لسبب المطر، ثم همس كعادته في أذن المحامي "رجل وجيه اسمه شريف بك، عنده قضية" وهنا قدم الباشكاتب بطاقة كتب عليها:

علي شريف مقاول - تليفون منزل 98201 - مكتب 96304 - العمارة 97126

وكانت البطاقة مذهبة وفي أسفلها يدان مشتبكتان فعلم ناني أنه بعجر أمي، فأمر بدخوله فدخل.

دخل وفي فمه عقب سيجارة توسكاني، وهذه طريقة أرستقراطية جديدة اتبعها المحدثون من أغنياء الحرب. كان المقاول فخماً جداً، تعبر صدره من الشمال إلى اليمين سلسلة ذهبية وفي كل إصبع خاتم ذهبي. شاربه مفتول لأعلى، وطربوشه أحمر فاتح طويل. خلع طربوشه بعد أن خلع ليجفف عرقه، فظهر الشعر الأسود اللامع المقرون من الوسط بعناية وقال بأرستقراطية:

أقدم لك نفسي: المقاول علي شريف. أنا وكيل أشغال عائلة علي بك حلمي، وعندي قضية تخص أطيان الآنسة زازا حلمي.

فتململ ناني في كرسيه كأنما لدغته أفعى.. لقد جاء البعجر بنفسه يسعى، أحسّ أن المسدس يناديه من أعماق الدرج، وشعر بحرج بالغ وضرورة لم يألفها للإيذاء. ولكنه ضبط أعصابه وأخذ يستمع إلى ظروف القضية. وكانت الفكرة التي تدور في رأسه وتضجره، هي: لماذا تحتاج زازا لوكيل أشغال، لماذا لم تجئ إليه بقضاياها ومشاكلها توا؟ وفكرة أخرى.. هل تعلم زازا أن بعجر بك جاء بقضاياها لمكتب ناني؟

أتكون زازا هي التي أشارت على شريف باستشارة ناني حتى تجمع الواحد بالآخر. أيكون لها مأرب في الجمع بينهما؟ إنه لم ينسها وهي تنظر إلى دموعه منتصرة أنه لم ينس قدرتها الفائقة على احتمال العذاب وإخفائه.. لماذا لا تكون هذه القوة المكتومة تتخذ لها مخففاً في رؤية ألوان الصراع والكفاح والدموع....

كانت القضية تافهة، ففهمها ناني في لمحة، ولكن بعجر بك أخذ يثرثر ويطيل لغبائه الفادح الفاضح. وقد أدرك ناني أنه لا يفتأ يدور حول نقطة بعينها، لا يتركها حتى يعود إليها.. ففهم سراً من أسرار الدون جوانية كان خافياً عليه. الإلحاح والإصرار.. إن ناني يستنكف أن يطرق باباً مرتين، ويأبى أن يستجدي امرأة حبها.. وعندما يراها أخذت تشيح بوجهها، يؤتي هو ظهره لها.. ولكن بعجر بك، وشيعته، وأشباهه، يصلون في إصرارهم وإلحاحهم إلى درجة الصفاقة والوقاحة وهذا سر نجاحهم، حيث يخفق أذكى الناس وأسماهم عبقرية وأنضجهم فهماً.

وعندما همَّ ناني أن يختم موضوع القضية فيلخصها في كلمتين رجع بعجر بك إلى النقطة التي بدأ منها فوقف ناني وقد ضاق ذرعه وقال:

طيب يا شريف بك سيب لي القضية لما أدرسها وتبقى تفوت عليَّ بعد يومين علشان نتفق..

قال شريف بك: نتفق من دلوقتي الفلوس ماتهمنيش. قال هذا وأخرج من جيبه حافظة نقود حبلى منتفخة، فتحها وقال بزهو:

كام عايز مائة. مائتين؟

فأحس ناني بالكره يغلي في دمه والاشمئزاز يطفو في حلقه ويعتصره ويخيفه.

شعر بغضب على الحياة، ونقمة على المجتمع وحقد لم يألفه من قبل، هو الصافي القلب الأبيض الفؤاد.

مـرة أخـرى شـعر بـأن المسـدس يناديـه فقـال بحـزم: لا يـا شـريف بـك مش دلوقتي أحسن لما أدرس القضية كويس.

فكـان شـريف بـك أغبـى مـن أن يفهـم أنـه ضـاق بـه ذرعـاً وأنـه يطرده.

فقـال: يـا أسـتاذ نـاني احنـا سـمعنا عنـك كتيـر. وزازا حكـت لـي عنـك كثير.

أحـس نـاني بضـيق فظيـع وتحركـت يـده بحركـة عصـبية.. حركـة لا إراديـة.. فمـد يـده لا ليسـلم علـى المقـاول وإنمـا ليقـيس قوتـه فـي الصـراع المقبل.

لـبس المقـاول طربوشـه، وانصـرف وهـو يقـول: بعـد يـومين أفـوت عليك.

8 جروبي

كان يوم الأحد التالي للمقابلة التي جرت بين المقاول والمحامي يوم عطلة عامة. فخطر لناني أن يقضي الصباح في جروبي. كان يلتقي فيه بزازا أحياناً، ولكنه في هذا الصباح آثر أن يكون وحيداً ليستجمع أفكاره، وليحدد موقفه كما كان يقول دائماً بين نفسه ونفسه، فإنه لفرط ما قرأ وتفلسف، كان يميل دائماً إلى تحديد المواقف، وتحديد التعاريف، وحصر المواضيع في نطاق معين.. وقد وجد نفسه في هذا الصباح أشد ما يكون حاجة إلى تلخيص الحالة.

كان جروبي غاصاً بالناس كعادته دائماً أيام الآحاد. وميزة جروبي (القديم) أن الذي يعتاده لا يغيره. ففيه ساحة "بيتية" تجعلك تظن أن أهل أسرة واحدة تعرفوا هناك، فهؤلاء كلهم ألفوا المكان وألفوا بعضهم، ولم يبق إلا أن يتحدثوا. فكثيراً ما حيا الجار جاره، لأنه اعتاد أن يراه فكأنما نشأت بينما صداقة صامتة.. وقد اعتاد كثير من الأدباء والمفكرين أن يتلاقوا في حديقته أو في داخل المكان. وكان ناني يلتزم ركناً بعينه لا يغيره.. وكأنما كان هذا الركن ينتظره فقد كان يجده دائماً خالياً، أي في انتظاره ويكاد الكرسي والمائدة يقولان له "أهلاً وسهلا". وإنه ليذكر أنه انقطع عن المجئ مدة طويلة بسبب المرض، فلما رجع إلى ركنه المفضل، صار يمر بيديه على المائدة والكرسي، كما تمر يد الإنسان بكائن حي عاد إليه وأنس به واطمأن إلى بقائه. وقد فاجأه أحد

مكـاتبي الصـحف، ووقـف ينظـر إليـه خلسـة، ومـا لبـث الخبـر أن ظهـر فـي المجلات الأدبية بعنوان "ناني المحامي يقبل مائدة".

فـي صـباح الأحـد الـذي ذكرنـاه جلـس نـاني إلـى مائدتـه الغاليـة وفـي يـده كتـاب. دائمـاً كتـاب فـي هـذا الصـباح كـان كتابـه ديـوان شـعر "سـللي بـرودوم" وكـان يـؤثره علـى جميـع شـعراء فرنسـا ويفضـله لأنـه الشـاعر الوحيـد الـذي كـان عقلـه فـي الشـعر مسـاوياً لعاطفتـه، وكلاهمـا عنيـف متـدفق.. وكـان أحـب مـا يفضـله مـن شـعره قصـيدة الإنـاء المكسـور. أخـذ نـاني يقرؤهـا، فـإذا فـرغ مـن قراءتهـا عـاد إليهـا مسـتمتعاً بعمقهـا، مسـتمرئاً مـذاقها مصـغياً بلـذةٍ إلـى موسـيقاها، وكـان يـرى مـن بعـد الكاتـب المشـهور فـلان وطالمـا لقيتـه فـي مكانـه المختـار. ولكنـه كـان يأكـل.. دائمـاً يأكـل. فعجـب نـاني لـذلك الجمع بين الأكل والكتابة.. بين الفكر والمعدة.

وشـرد بـه الفكـر لشـاعر مشـهور، لقيـه نـاني عنـد بـاب مينـا هـاوس يتـأبط سـمكاً وخمـراً وكانـت الليلـة قمـراء، ولـم يكـن مـن المسـتطاع فـي تلـك الليلـة أن يثيـر القمـر غيـر الخيـال والأحـلام، أمـا السـمك والخمـر فمـا أبعـدهما عن إثارة الخيال.

بعـد قليـل وجـد نـاني نفسـه فـي حـال لا تسـمح بـالقراءة.. فقـد أخـذ يشـرد بصـره ويتشـتت فكـره فـي كـل مـذهب وأخـذ "سـللي بروجـوم" والمفكـر الـنهم وشـاعر السـمك والخمـر يسـبحون فـي ضـباب أثيـري أمـام عينيـه ويتشكلون بأشكال مضحكة.

وأخـذ يسـتجمع أفكـاره.. فكلمـا هـم بجمـع فكـرة وضـمها إلـى أخـرى أفلتـت منـه.. وبعـد جهـد أخـذ يسـيطر علـى أفكـاره ويلـم شـتاتها وأخـذ يحـدد موضـوعه: إنـه يحـب زازا، وزازا تحبـه، إنـه يحبهـا بـلا شـك ولا تأويـل. يحبهـا حبـاً عاصـفاً يائسـاً مجنونـاً، ولـو كـان فـي الوجـود مـا يسـمى بالحـب الكامـل لكـان هـو هـذا، الحـب الكامـل كـالحرب الكاملـة. لا يبقـي ولا يـذر، ولقـد يكـون حبهـا لـه كـذلك، مـن يـدري؟ إنـه يـود لـو غاصـت يـده فـي أعمـاق قلبهـا فـأخرج حبهـا وتأملـه ليطمـئن ولكـن قبـل الحـديث عـن حبـه وحبهـا، أليـس الأصـوب

أن يحدد معنى كلمة الحب.. إن زازا تؤمن بأنه قدر، وهو يؤمن بذلك معها، ولكنه كان له رأيه الخاص. فهو يعتقد أن الحب ينشأ كفكرة كنقطة تزداد اتساعاً، ثم تزداد عمقاً، فتحدث قلقاً غامضاً، مشبّهاً لما يحدث في الأزمات النفسية وسرعان ما يصبح القلق الغامض كياناً بارزاً ثابتاً، فينتقل في جوانب النفس، يندس في الباطن ثم يطفو إلى الوعي، ثم يصبح كقائد المعركة يتدخل في كل حركة من حركات النفس وسكناتها. يلقي أوامره، وينفذ، ويتطلب الطاعة.. الطاعة العمياء.

هذا هو رأي ناني، وقد كان يعلم في دراساته أن هذه الفكرة الثابتة مستعصية على الشفاء.. ومن ثم كان الحب الكبير علة ليس لها حل.. وفوق ذلك فإنه يعلم أن ختامها اليأس القاتل. وخاصة إذا لم تجد متنفساً، أو ملطفاً فالعقبات لا تمحوها، والحوائل تزيده إصراراً، واليأس يزيدها إلحاحاً واشتغالاً.

وهو اليوم متعبٌ أشدَّ التعب، يائسٌ أشدَّ اليأس، فإن المقاول – بعجر بك – وكيل أشغال زازا..

وهنا أبصر بغريمه داخلاً وفي ركابه حاشيته، حاشية تتملقه وتسبقه باحثةً له عن مكان وقائلة كلها في نفس واحد "اتفضل يا سعادة البيه". فجلس سعادة البيه منتفخ الأوداج يتكلم بعظمة.. ويشير بأرستقراطية. فلما جاءت "الطلبات" أراد أن يعلم كل من في جروبي أنه هناك، فأخذ يصطنع خناقة سمجة أن اللبن "قاطع" والشاي طعمه متغير.. صاح غاضباً:

- خذوا حاجتكم المعفنة.. نروح مكان تاني أحسن جروبي بقى وحش.

فما لبث جروبي أن وقف على قدم وساق، وجاء مديره مهرولاً وأخذ يطيب خاطره وما زال به يترضاه حتى هدأ ثائره.

كان ناني يرى كل هذا من خلال الزجاج الذي يفصلهما.. رأى الحاشية واستمع إلى الخناقة، وأخذ يتأمل من جديد وكيل أشغال زازا،

وغريمه المنتظر، ولكن هذا الأخير لمحه فجأة فأشار إليه بتحية متعاظمة، تحية معناها: أرأيت كيف أقيم جروبي وأقعده.. وكان جيب سترته منتفخاً فكأن الحافظة تقول كلا.. ليس هو بل أنا.

وبعد قليل هرول شاب يرتدي معطفاً أبيض، وهمس في أذن المقاول. فخيل لناني إنه يقول له أن زازا في السيارة، هكذا خيل له أو صور الشك، فإن المقاول اضطرب، وأخذ يبحث في جيوبه على غير وعي، وظهرت عليه العجلة، وبدا على سحنته أن أمراً أهم من جروبي ومن جميع من في جروبي، وأثمن من أي صفقة يعقدها هناك، أمراً جليلاً، ينتظره في الخارج..

فسرى الاضطراب إلى ناني كذلك، ولم ينتظر الجرسون ليحاسبه، بل ترك له مبلغاً من المال – لم يجد وقتاً لعده على المائدة وتناول طربوشه وانطلق في أثر المقاول ولكن المقاول كان أسرع منه وكأنما لمحه وهو يتأهب للقيام فهرول نحو الخارج هرولة مضحكة، فلم يكد ناني يصل إلى الباب الخارجي حتى رأى السيارة "البويك" تتحرك وفيها المقاول وبجانبه سيدة لم يتبين ملامحها جيداً.. كاد يسقط وأمسك بفانوس النور وهو يهمس بين نفسه ونفسه، زازا زازا.

لم يكد يتماسك قليلاً حتى وجد نفسه يمشي مترنحاً وهو لا يدري إلى أين. أخذ يضرب في الشوارع على غير هدى، حتى وجد نفسه وقد بلغ منه الكلل مبلغه عند باب جروبي الجديد بميدان سليمان باشا. وكان ناني يمقت جروبي هذا، فإنه قد اتخذته الأرستقراطية مقرا لها صار به معرض للأغنياء وأولاد الذوات. أما النساء اللواتي كن يذهبن إليه فكن يشتركن في العرض بأثمن ما عندهن من الثياب والحلي واللآلئ.

شعر ناني بانقباض، ولكنه دخل مضطراً لكي يستريح فجلس في أول مقعد قابله وأطرق برأسه في إعياء، وكانت الأصوات تصل إليه مختلطة وتطن في أذنيه طنين الذباب.طلب فنجاناً من القهوة فلما احتساه شعر بقواه تعود إليه. ولكن يبدو أنه اليوم كان منحوساً، فإنه

سمع وراءه صوت شاعر السمك والخمر، وكان يعرفه من علوه وتعاظمه، إذ طالما ميز صوته من بين آلاف الأصوات لأن فيه خنافة يحسب صاحبها أنها تعطي صوته لوناً أرستقراطياً جذاباً.

أخذ الكلام القريب منه يدور حول مختلف المواضيع ويتنقل بسرعة، من حديث السياسة إلى حديث الأدب والأمراء إلى حديث الصالونات والنساء. وكان سيد المجلس يطرب للنكتة المبتذلة ويضحك عالياً إلى أن جاء دور التفاخر بالدون جوانية والتحدث مع فلانة وفلانة. هذه تحب صاحبنا وتلك تريد أن تتزوج صديقه.

وقال أحدهم كان بادناً وقحاً تصوروا أن فلانة بلغت بها الوقاحة، أن تطلب مني الزواج بها..

فقال آخر وكان سخيفاً كالباقين: وفين زازا حلمي إنها لم تعد تجئ.

فقهقه الباقون قهقهة قذرة، وانتفض ناني انتفاضة مرعبة وتندم على أنه لم يأت بمسدسه.

هؤلاء الزعانف يأكلون الأعراض ويتفاخرون بالابتذال، وهذه هي مجالسهم الراقية في جروبي الممتاز.

هؤلاء كانت زازا تغشى مجالسهم على زعم أنهم صفوة البلد ومفكريها وخلاصة فنها وأدبها، لاشك أنها كانت تغشى هذه الندوة حبا في لفتة هنية بارعة، أو ملحة لامعة، أو بديهة ناصعة ترى كم التقطت المسكينة من هؤلاء الببغاوات وكم نقش في ذهنها البرئ الساذج الطاهر من هذه الكليشيهات. وترى كم التقطت - على غير عمد - من سوقية المقاول وألفاظه الشوارعية؟

إن ناني كان يعرف تمام المعرفة أثر البيئة، ويعتقد أنه لكي يتبدل شخص ما وجب أن تتبدل بيئته. أما تربيته بالوعظ والزجر والمثل الأخلاقية وما إلى ذلك فأسطورة عتيقة والآن، الآن فقط عاد يذكر كيف أن زازا برغم نفسها العالية، وثقافتها الرفيعة وأدبها الجم كانت تتفوه

بجمل ببغاوية، وكانت هذه الجمل تتكرر في مواقف بعينها، فلما غاضبها وأخذ يلح عليها ليعرف المصدر الذي منه التقطت هذه الكليشيهات أنكرت إنكاراً تاماً. ولم تكن كاذبة في ذلك فإن العقل الباطن هو العدسة التي تلتقط وتسجل أمثال هذه الألفاظ بغير علمنا.

وقد يلتقط الباطن لقطة، أو حركة أو إيماءة في ظرف معين ليكررها في ذلك الظرف بعينه. والنفس الصافية الساذجة هي التي تلتقط لأن صحيفتها لا تزال بيضاء وهي تلتقط ممن تتطلع إليه كمثل أعلى، وتعتقد أنه جدير بالمحاكاة.. ومن الصعب جداً محو هذه الكليشيهات الببغاوية.

ثم تذكر وهو يتناول طربوشه وكتابه ويستعد للقيام أن رسائل زازا، على صفاء أسلوبها ونقاء ينبوعها، كانت تتكرر بها أمثال هذه الجمل فهي قد التقطت بعض جملها من كتب هؤلاء الزعانف، التقطت بعض ألفاظها من مجالسهم السخيفة.

وبينما كان يعبر الصالة متجها نحو الباب الخارجي سمع سمار الندوة يقولون "ناني آهه".

وكان يشعر من هذه الهمسة بفحيح الحقد وأحس في رأسه من الخلف لفحاً، كأن نفساً من القبر يهب عليه ويتبعه.

ولم يكن ناني يسعى لشهرة وإنما كانت الشهرة تسرع نحوه إسراعا. ولكنه لم يجن منها شيئاً بل كلفته ثمنا فادحاً، بل ثمنين الأول أنه لم يزد منها غنىً ولم يفد جاهاً. والثاني أنها كلما استطارت الشهرة صارت حسداً وحقداً وضغينة.

9 الوقاحة تتجسد في امرأة!

وقفت السيارة عند باب سعادة المدير العام بالوزارة ونزلت منها عجوز بادنة مصبوغة الشعر قبيحة المؤخرة.. وتبعها على الفور صاحبنا المقاول.. فتصدى لهما الجندي الواقف بالباب. فقالت السيدة بغطرسة: أنا فلانة افتح ولا أرفتك فما كاد يسمع الاسم حتى انحنى احتراماً. ووقف إلى جانب قائلاً اتفضلي يا فندم فتقدمت بكبرياء وقحة وخلفها المقاول يتهادى في ظلها مزهواً.. وهكذا سار الموكب الفخم المكون من اثنين تهتز الأرض تحتهما وتترنح. سار الركب إلى مكتب المدير العام مجتازاً الفناء وصاعداً الدرج وأينما سار وقف الناس يفسحون الطريق، وهم يتهامسون فيما بينهم "دي فلانة".. فقد كانت فلانة هذه تتقدم بصدرها، وكأنما نبت على جانبي الصدر جناحان يظللان الوزارة ويطيران بها إلى المدير.

كان مكتب المدير غاصاً بالناس ويمكن تقسيمهم إلى فئات.. فئة أرباب الطلبات المرفقة بالتوصيات.. وفئة الوسطاء وأرباب الشفاعات وقضاء الحاجات وفئة الأكابر أرباب البطاقات.. وأحياناً تجئ فئة أخيرة فئة العمل بالوزارة وقد وقف الموظف المسكين يتأبط ملفاً وينتظر وينتظر.. عندما دخلت فلانة هانم، قام لها مدير المكتب وهو قليلاً ما يقوم لأحد ورفع رأسه لها باهتمام وهو الذي يستنكف أن يرفع بصره لأحد وأسرع السكرتير بتقديم الكرسي. وصفق السكرتير الثاني في طلب القهوة والكوكاكولا والبيسبي كولا.. جلست السيدة ووضعت قدماً على قدم، وأشعلت سيجارة، ثم قالت في غير كلفة:

- الباشا هنا؟

كان المقاول يقف خلف كرسيها، يفتل شاربه، ويجيل في الحاضرين لحظاً يقول: ألا ترون أني تبيع هذه السيدة التي تقف لها الوزارة على قدم وساق.. وتبادل المدير والسيدة القفشات، ثم قهقها ثم دخل المدير وخرج في غمضة عين يقول للسيدة اتفضلي فتقدمت الصفوف وهي تخاطب المقاول كما تخاطب عبدها قائلة "يالله يا شريف"..

كان المدير العام في هذا النهار سئ، المزاج فقد كان اليوم شديد الحرارة والتوصيات شديدة الوطأة، والمركز الوزاري شديد القلق..

فخلع طربوشه وقد تبعثرت خصلات شعره المصبوغ وظهر بينها فراغ أبيض أشهب كبلاط الحمام القذر.

كان في هذا الوقت قد ترك كرسيه وجلس إلى جانب وجيه وأخذ يتهامسان وقد مال كل واحد منهما على الآخر، لم يكن ثمة جدال أن الواحد منهما كان ينافق الآخر ويمكر به، كل ذلك في ابتسام خبيث أصفر.

وما لبث الوجيه أن قام مستأذناً فشيعه المدير العام قليلاً، وهما يضحكان ضحكة تجارية، كانت السيدة وتبيعها في جانب ينتظران انتهاء الباشا من مقابلة زائره ووقفت هي في أدب ووقف ذيلها، كما يقف ذنب الكلب، عندما يشتم رائحة مأدبة.

قال الباشا ملتفتاً إليها وقد انبسطت أساريره العابسة أهلاً فلانة هانم خير إن شاء الله. فقالت فلانة هانم مشيرة إلى ظلها:

حضرته شريف بك المقاول فقاسه الباشا بنظره محتقراً وقال تشرفنا. فتقدم شريف خطوة وانحنى في ذلة وضعة ثم التفت المدير العام إلى فلانة هانم وقال إيه الحكاية؟

فمالت على أذنه تهمس بالمسألة فما لبث أن صاح محتجاً "لا لا" دي مسألة سياسية خطيرة لا أقدر عليها ولا على التوسط فيها، دي سياسة الدولة.

فصمتت المرأة، وانتظرت لتلقي قنبلتها.. ثم أعدت القذيفة وقالت:

إنت عايز بقى اللي يكلمك ويؤثر عليك..

فالتمعت في رأس الرجل عدة مصادر يمكنها أن تكلمه وتؤثر عليه..

وكان يفكر في مصدر والمرأة تفكر في مصدر والمقاول يفكر في المصدر الوحيد الذي له قيمته في نظره، كان المدير العام يفكر في رئيس حزبه وكانت المرأة تفكر في المرأة والمقاول في المال والشيطان يفكر في الثلاثة معاً.

هذه المرأة بالذات، كما تندس في الوزارات تندس في الأحزاب. وتندس في دور الصحف ولها أثرها في المؤامرات الانتخابية، وتصيد الأخبار ونقل الأسرار.

أخذ الكبير يقلب وجوه الرأي برهة، فأخرجت المرأة من جيبها اللهب وقالت في حزم وإصرار يشبهان الوعيد عايزين تأشيرة.

ولكن الكبير كان أخبث من أن يقاد هكذا بسهولة، فالتفت إليها وقال في نفس النبرة لما ندرس المسألة، فوتي علي بعد يومين.. فأعادت الكرة وقالت بعد يومين ليه؟ دي مسألة بسيطة ثم غيرت صوتها وقالت في دلال وإغراء، جرى إيه يا باشا انت بتعطل مصالحنا ليه ما كنتش كده.

وكان المقاول ينتظر مصفر الوجه شاحباً، وهو يفكر في المبلغ الذي دفعه لهذه المرأة فقد كانت على قدر نفوذها خربة الذمة، مماطلة لا ترد ما أخذته، ولو انطبقت السماء على الأرض.. فخيل له أن انتظار اليومين معناهما يومان فيومان فانتظار فجري، فتعب شاق خلف هذه المسألة البسيطة وبعد هذا ضياع المال على كل حال.. وجاء مدير المكتب يعلن قدوم عظيم وإذا بالباب يفتح على مصراعيه، وصاح الحاجب على الطريقة الإنجليزية الفرنسية القديمة:

حسن باشا علي..

فاستأذنت المرأة ووراها ملحقها.. وهي لم توفق في الحصول على التأشيرة بالسهولة التي كانت تنتظرها فما كادا يخرجان حتى انقلب الظل إلى حيوان، وقال عاتباً أصلك ماعرفتيش تأثري عليه كفاية.. كان لازم تكوني ناشفة عليه.

ثم استطرد قائلاً في همس المبلغ مش كفاية؟ فأجابته في خوف وهي تتلفت يميناً ويساراً.

وجرته جراً إلى السلم.. ولكنها عندما خرجت لم تكن تفكر مطلقا في أنها فشلت بل كانت تفكر في حيلة أخرى أو واسطة أخرى.

وعندما ركبت السيارة إلى جنب المقاول، التفتت إليه فجأة وقالت:

الفيلا بتاعتك اللي في مصر الجديدة فاضية؟

ففهم الغبي في الحال قصدها وقال:

وإن ماكانتش فاضية، نفضيها.. مش قصدك سهرة؟ سهرة بريئة؟

فشدت على يده بخبث وقالت في وقاحة: فهمت يا حيوان..

وانطلقت السيارة بالحيوانين إلى فيلا المقاول بمصر الجديدة.

10 نكسة الداء

كان ألبير مسافراً في الخارج حين شعر ناني بأن الداء الذي ظن أنه برئ منه قد أخذ يعاوده. ولقد ساءه أن يكون ألبير مسافراً في هذا الوقت، فإن ألبير هو الطبيب الوحيد الذي يمكن الاعتماد على أمانته المطلقة، لقد يكون في مصر أمهر منه، ولكن لا يمكن أن يكون هناك "إنسان" أكمل منه. ولقد تكون إنسانيته هي التي تخلق معجزة الشفاء. لا الدواء الذي يكتبه.. أجل ساءه أن يكون ألبير مسافرا، أحس بهذا الفقدان البالغ، وهو يجلس في مقهى في شارع فؤاد. لجأ إليه عندما أدركه الإعياء في الطريق. لم يكن ناني جباناً، فهو قد لقي الموت مراراً. وكان يتلقاه في كل مرة ضاحكاً. إلا في هذه المرة، فهو يجزع من الموت ولا يريده. ليس هذا وقت السقم والمرض والإعياء، إن زازا تنتظره، والكفاح من أجلها يقتضي أن يعيش. ولقد كان ناني يؤمن بأن هناك شيئاً يدعى إرادة الحياة، وأن الموت قد يستطاع إقصاؤه بمحض الإرادة، كما يسهل الحصول عليه عند طلبه.

كان مع الإعياء يشعر بشئ من الحمى، ثم إنه قد وزن نفسه في الميزان القائم بجوار المقهى، فلم يستطع تعيين التذكرة التي دلته على أنه نقص في الوزن كثيراً. ثم أنه قضى ليلة أمس يسعل سعالاً جافاً. ليلة أمس.. أين كان ليلة أمس؟ لقد قضاها في صالة الرقص التي لا تبعد عن هذا المقهى غير خطوات.. يالله ما صنع بنفسه.. هل هذا اليأس المحطم يتفق مع إرادة الحياة التي يوحي لنفسه بها الآن. إنه لم يَرَ زازا منذ أيام، أي منذ أن رآها في عربة المقاول، وهو قد انقطع عن الذهاب لمكتبه إلا لماما، وصار يقضي لياليه في ذلك المرقص

الصاخب، ثم إنه صار ينفق بإسراف، ولا يحسب حساب الغد، وإذا أخذ الإنسان ينصرف عن التفكير في غده، فهو إما حيوان أو يائس.. وها هو قد صار كلا الاثنين. وهذا المرقص ميدان للحيوانية واليأس معا. ثم إنه يعرف صاحبة الصالة، وكانت تحضر إلى مكتبه وتستشيره في قضاياها، وكان هو يرتاح إلى صفاء عينيها. وكان قد أقسم عندما عرف زازا – بين نفسه ونفسه – أن لا يسمح لنفسه بالتفكير في امرأة غيرها. وقد بر بقسمه، فما باله في هذه الأيام يطلب في صفاء عيني صاحبة قديمة، غديراً كان ينهل منه، وترتوي نفسه من وروده؟ هل يعني هذا أن الغدير الذي في عيني زازا تنكَّرَ له، هل ترنق، هل ادلهم نهاره الضاحي؟ أيكون خادعاً لنفسه، إذ أنه ما فتئ يوهمها بأن في هذه الذكريات القديمة راحة لنفسه المتعبة، والحقيقة أنه أخذ ينكث بقسمه لزازا؟ ولكن أين زازا الآن؟ كيف يبر بقسمه لها، وهي قد تكون الآن في سيارة المقاول، من يدري؟ إنه الآن متعب كليل مريض منهوك القوى، بينما هي قد تكون في سيارة صاحبهما، وربما تكون قد مضت بهما إلى حيث كان ناني وزازا يلتقيان. وهنا مر بيده على جبينه المحموم، وقد تخيل المقاول بجسمه الضخم، وكرشه المنتفخ، وغروره الوقح، وغنائه الفاحش.. لقد كان ناني وزازا يصومان عن ماديات الدنيا، ليتزودا من معانيها.. الصفاء والصمت، القمر والنيل، المروج الخضر، فهل يفقه المقاول معنى لهذا الجمال.. كلا لا شك أنه الآن يأكل، ويدعوها للأكل معه، وقد يكون الآن يجرع كأسا بعد كأس، مسكينة زازا، لقد كانت تكتفي بفنجان القهوة، وإذا صادف أن مست شفتاها مسكراً، دارت بها الدنيا، وقالت لناني قم بنا فإني على شفا الموت وترتمي في ذراعيه متعبة كالطفل الصغير، وكثيراً ما حملها هو وأختاها إلى فراشها وهي مستسلمة لدوار يشبه الغيبوبة العميقة..

مسكينة زازا.. ماذا جنت عليها الدنيا؟ هذه البسمة الرقيقة، هذه الدمية الناعمة، قد تصبح – من يدري – زوجة لهذا الفيل.. يا رباه! ما أتعس هذا المنظر!

هذا المنظر؟ كلا كلا إن هذا لن يكون، إن ناني لن يسمح بهذا. لن يسمح لأحد أن يختطف زازا منه.. إنه قوي، إنه شجاع، إنه لا يعبأ بالموت في

سبيلها. إن زازا لا ذنب لها، وكل أخطائها أخطاء المجتمع المريض، المجتمع الذي يساعد على نمو الحشرات التي به ويغذيها حتى تصير فيلة ضخمة..

هنا عاود ناني الإعياء من جديد، وشعر أن غمامة تغطي على بصره، وتحجب الرؤية، وشعر أنه غريب، عن العالم، بل بالعكس محب غريب جداً في هذا العالم.. كان دائماً يحس بهذا الشعور، هو لا يكره هذه الحياة، ويفرح بالأحياء، ولكن هذا الفرح كان صفة النازح إذا هبط أرضاً غريبة، أرضاً حافلة بالحركة، مائجة بمختلف المغريات، ضاحكة باكية، مشرقة عابسة، منيرة حالكة، فيها بؤس وفيها رخاء، فيها أدواء وفيها شفاء، فيها قوي وفيها ضعيف، فيها عواصف وفيها نسمات، فيها رجال لا قيمة لهم، وفيها رجل واحد بملايين، وفيها نساء كالزبد، وفيها امرأة واحدة بكل من في المحيط من أمواج.. فيها زازا.

إن زازا هي المرأة الوحيدة التي فهمته، المرأة الوحيدة التي رأت جرحه الخفي فمدت إليه يدها تلطفه، المرأة الوحيدة التي آوته من غربة، ورحمته من نفي وتشريد..

زازا.. كيف لا يذكر أيامه مع زازا. يجب عليه أن يذكرها، ويعيد ذكراها، وينشر عطرها، في جوانب نفسه قبل أن تغيم الذكرى وتذبل الأزهار، ويموت النهار والأنوار..

رفع رأسه قليلاً، فرأى سرباً من العذارى يخطرن أمامه، كلهن سمراوات، كلهن زازات من يدري ربما كان لكل زازا منهن ناني.. ناني ولكنه ليس مريضاً ولا شاحب الوجه ولا منهوك القوى... لا! لا! لكل زازا منهن ناني، شاب، وسيم، متفجر الشباب، من يدري ربما كانت كل زازا منهن الآن ماضية إلى لقاء نانيها؟ أما هو..؟ غامت عيناه بالدموع وتذكر أيام كان نهاره زازا، وليله زازا، وطالما طاف شارع فؤاد حانوتاً حانوتاً، كل حلية جميلة تصلح لزازا، كل ثوبٍ أنيق، يليق لقدها الممشوق، كل شئ جميل في هذه الحوانيت خلق لزازا وحدها.

أخذ يعلل نفسه أن يراها مارة، إنها تمر، كما تمر هذه الأسراب جميعاً، تدخل هذا الحانوت، ثم ذاك، تنتقل كالظبي الخفيف الخطى.

ولكن الحظ يشاء أن يمر غريمه، كان جالساً في سيارته وبجواره السيدة البادنة، فرآهما ناني، وفارقته الحمى، ووقف كالمجنون يقهقه ضاحكاً... أكان يقهقه من جراء الحمى الذي أخذت تشتد وطأة؟

أكان يقهقه لأنه رأى لأي درك انحدر غريمه.

أكان يقهقه لأن شر البلية ما يضحك – لحد القهقهة!

أكان يقهقه لأن المريض الوديع الشاحب انقلب شيطاناً قوياً، شيطاناً يريد السيدة البادنة الوقحة.. هذه "الأصناف" التي يمقتها والتي عاش يحاربها بقلمه، ولسانه، وماله، والتي عاش ينفق جهده وصحته وعافيته في سبيل القضاء عليها..

ها هي تتضخم وتنمو، وها هو ينطفئ ويذبل وها هي كنوزه، زازا... ذكريات زازا، أيام زازا تنتقل إلى كنف المقاول وتسقى وتطعم من مائه.

لا لا إن زازا له وحده، إنه قطع صلته بالعالم من أجلها. إنه تخلى عن كل مشغوليات الدنيا لتكون زازا مشغوليته الوحيدة. أليس هذا ضربا من الجنون؟ أليس هذا حصراً لحيويته في نطاق ضيق؟ أليس من الخبل أن يدور عقله في دائرة واحدة هي زازا؟ كلا.. إن زازا خرجت به من عالمه الضيق، وسبحت به في آفاق عالية بعيدة نورانية.. إن زازا هي الدنيا.. وهذا العامل يلهب حسه ويحارب الموت والضعف فيه. ماذا عليه لو كافح.. ماذا عليه لو لقيها.. ماذا عليه لو وقف وجها لوجه أمام المتاعب بأجمعها فإما انتصر.. وإما انتحر..

11 عند المقاول

كان المقاول متزوجاً ولكنه كان قلما يرى زوجته. وكان له منها خمسة أولاد. كان "يمر" بين آن وآخر، غالباً في آخر الليل، ليرى "طلبات العيال" فكانت المسكينة تتجمل له، وتضع طبقات فوقها طبقات على وجهها الذابل من الكريم والبودرة والأحمر وتتعمد في جعل شعرها منتشراً على كتفيها كما كان يحبه من قديم. وكانت تلبس له الثياب الزاهية اللون - وخاصة الأحمر - وتجعل الفتحة التي في أعلى صدرها واسعة بحيث يطل منها الوادي الذي بين الجبلين المسميين نهديها.. وكانت فوق ذلك تجهز له الحمام المشوي والفريك.. فكان إذا حضر سأل عن "العيال" والتهم الحمام والفريك، ومسح فمه الضخم بالفوطة، وهو يخرج محفظته المتورمة، ويضع أوراقاً مالية لا يعدها، على المائدة الخشبية الصغيرة، ثم ينفلت هارباً بدون أن يلقي نظرة واحدة على الأبيض والأحمر والشعر المسدول والفستان الزاهي والصدر العاري.. فتودعه إلى الباب وهي تنهنه قائلة "يا سي شريف".

ولكن "سي شريف" يكون قد استقل السيارة، وهو يركل برجله السواق النائم، ويقول "على العمارة".. وتقع العمارة في أول الموسكي حيث ينقسم مكتبه فيها إلى قسمين، قسم للعمل، وقسم للفرفشة. أما قسم العمل، فليس فيه غير مكتب وتليفون وكاتب، كانت كل الأعمال "سمسرة" والسمسرة لا تحتاج لأكثر من مكتب وتليفون، وقد يكون الكاتب لا لزوم له. وهذه "السمسرة" تتناول أي عمل وأي بضاعة. وليس

عليه إلا أن يكون خبيراً بالسوق وعارفاً لخفاياه، ولكي يكون خبيراً بالسوق وخفاياه يجب أن يكون قد نما بين الأزقة وترعرع..

على أن "شريف بك" كما كان يدعى بعد إثرائه، أخذ يفكر في الظهور بمظهر الأرستقراطية، عليه أن يستقدم سكرتيرة، وعليه أن يغير الأثاث، وعليه أن ينتقل من الموسكي.. وكان في هذا اليوم بالذات قد فكر جدياً في كل ذلك. وفكر في أبعد من ذلك وهو أن يطلق زوجته، ويعطيها "كام قرش" هي وأولادها. وفكر كذلك في أن يتقدم لخطبة زازا..

وعندما فكر في زازا لمعت عيناه بخبث ونهم.. سيستبدل تلك المرأة "البلدي البادنة" بذلك القوام المرهف الفاتن الساحر. سيستبدل تلك المائدة الخشبية بقطعة من الموبيليا الفاخرة: مائدة تمتد من أول الصالة لآخرها، تفتح وتغلق، ويكون عليها مفرش من المخمل، وأواني تملؤها زازا بالورود من حين لآخر. ولمعت عيناه بزهو وانتصار وهو يفكر في أنه سيستطيع أن يأدب للوزراء والكبراء وفوق ذلك يدخل الانتخاب ويكون عضواً في البرلمان.

وشئ آخر.. يستبدل السيارة بعربة كاديلاك فاخرة ويطرد هذا السواق القذر، ويستقدم آخر ينقده عشرة جنيهات في الشهر، ويجعله يرتدي معطفاً أبيض...

صفق بيديه.. لأنه لم يعتد استعمال الجرس بعد، فجاءه الكاتب. الكاتب الذي نشأ معه في الشوارع، وانتقل معه إلى المكتب، ولكن الغنى كان من حظ سيده فقط.. أما هو فسيظل بالجاكتة القديمة والبنطلون الممزق ليدل على عراقة هذا المكتب وانهماكه في الأعمال المضنية الشاقة..

هـرول بـدوي أفنـدي، فصـاح بـه المقـاول فـي لهجتـه الخشـنة "فـين البنـت السـكرتيرة".. مـاجتش النهـارده، فأجـاب فـي خـوف واضـح قاعـدة عنـدي في المكتب.

فصاح المقاول عندك بتعمل ايه.. ابعتها.

وسـرعان مـا أقبلـت الفتـاة تتهـادى... مـن أول نظـرة عـرف شـريف أنهـا تنفعـه، تنفعـه كسـكرتيرة، وتنفعـه كخليلـة، وتنفعـه كسمسـارة، وتنفعـه كجاسوسـة، عـرف ذلـك عنـدما قالـت بـإغراء "محسـوبتك يـا سـعادة البيـه" كانـت ميمـي فتـاة وسـيمة الوجـه، مكتنـزة الأرداف، أكـدت خطـوط حاجبيهـا تأكيـداً قويـاً، وأكثـرت الأحمـر علـى شـفتيها الممتلئتـين. وكانـت تعصـب رأسـها بإيشـارب، فتعمـدت أن تجعـل خصـلات شـعرها تتـدلى منـه علـى نسـق معين.

قال المقاول بصوت الظافر المسرور: اسم العروسة إيه بقى؟

قالت بإغراء أكثر: محسوبتك ميمي.

قـال: طيـب شـفتي بـاقي المكتـب؟ قالـت بفهـم ولباقـة رايحـة أشوف، تحت خدمتك هنا وهناك..

قـال كـلام فـي سـرك.. بـدوي أفنـدي لبخـة قـوي.. ولـولا إنـه قـديم عنـدي.. علـى كـل حـال فيكـي البركـة بقـى خلـي مكتبـك قريـب منـي، ورايـح أعمل لك جرس..

فتقهقـرت فـي أدب مصـطنع وانتقلـت إلـى مكانهـا المؤقـت بجـوار بدوي أفندي ريثما تنتظم الأمور.

صـفق المقـاول مـن جديـد، فهـرول الإثنـان بـدوي وميمـي فـإذا بـه يطلـب شيشـة مـن القهـوة المجـاورة. وكانـت تلـك عادتـه دائمـاً.. وقـد كانـت فكـرة انتقالـه إلـى الأمـاكن الراقيـة يعوقهـا التفكيـر فـي كيفيـة وجـود الشيشـة وهي لازمة من لوازم الشغل..

أخذ المقاول يكركر في الشيشة، ويحتسي القهوة من كوب زجاجية كبيرة وكان يمتص القهوة امتصاصاً ويعب منها بصوت مسموع.

وبعد قليل سمع وقع أقدام قادمة، كان القادمون بعض التجار، جاءوا يعرضون "صفقة".

قال كبيرهم وكان يرتدي لاسة وجلابية بلدي وقد كان كبير الشبه بشريف، عمراً، ووجهاً، وكرشاً، من يدري ربما كانت المهنة تطبع الناس بطابعها، وتخلع على السحنة نفس الظل واللون. ومن يدري أيضاً بعد سنة أو سنتين من يكون؟ سيكون وجيهاً كشريف بك له مكتب وتليفون وسيارة.. وسيخلع هذه اللاسة والجلابية البلدي ويرتدي بذلة ويشتري عمارة..

قال هذا الكبير عندنا صفقة رز سعر 80، ألف كيلو.. بس عاوزين إذن استيراد. ولك العمولة.. وشاركنا إذا حبيت..

ضرب شريف الحسبة في عقله فوجد أن فيها ألف جنيه مكسب على الأقل. تأخذ منهم جليلة هانم 200 لتحصل على إذن الاستيراد.. وفتل شريف شاربه بعظمة وقال: شئ بسيط باكر يكون الإذن موجود.

ما أسهل الثراء، تليفون، واسطة، قليل من المال تتناوله الواسطة! سيارة، وجاهة، مظهر، أبهة.. مأدبة احدة...

ثم قام مودعاً، بعد أن تناولوا القهوة في الأكواب الزجاجية، وقال بكرة في قهوة المالية.. الساعة 12 الظهر..

وبعد أن انصرفوا تناول التليفون، وجرى الحديث الآتي:

آلو

- أنا شريف

- مرحب. أنا جليلة.

- عندنا بكرة شغلة صغيرة... ها ها ها.. .

- تدفع اللي عليك قبل كل شئ... ها ها ها.

- مسدد كل حاجة..

- فاضل حاجة نسيتها العزومة وسهرة زي ما وعدت.

- الليلة دي..

ونظر شريف في ساعته فإذا بها قرب السابعة بعد الظهر، فقال:

الساعة تسعة يكون كل شئ جاهز.. هاتي معاكي صاحبنا اللي بيقضي الشغل.

- جاهزة... جهز كل شئ.. إبعت الأوتومبيل علشان عربيتي في التصليح.

- حالاً...

ثم أخذ شريف يتسلى بقراءة جريدة المقطم... وكانت قراءته في المقطم عجيبة. فقد كان يقرأ مفتوح الفم وبصوت يكاد يكون مسموعاً. وكان أقرب إلى التهجي من أي شئ آخر. وقد بدأ قراءة الجريدة من آخرها. أي من الصحيفة التي بها حوادث البوليس وجرائم اليوم. ثم يمر مراً سريعاً على الصحيفة الوسطى أي التي بها أخبار العظماء. فيبحث عن اسمه بين الأسماء لعله يظهر بين أسماء المحسنين أو بين أسماء المسافرين أو العائدين، ألم يحن بعد أن يذكر ولو مرة كل شهر على صفحات المقطم... المقطم على الأقل؟

حضرت ميمي لتستأذن في الذهاب، فأخبرها بأن الليلة عنده ضيوف دعاهم لسهرة في الشقة الثانية فأرادت أن تذهب لتستبدل ثيابها، فأشار في إعجاب قائلاً مشيراً بالأكثر نحو رد فيها انتي كده عال... ثم أمسك ورقة وقلماً وأخذ يكتب ما تحتاجه السهرة، فأدركت ميمي من كتابته – ولم تكن جاهلة - أن الياء يوضع تحتها نقط، وأن السين تكتب كالشين، وأن الضاد تكتب كالظاء، ثم مد يده بالورقة في عظمة وقال

هـاتي الحاجـة دي مـن "فلـوران".. قـوام وتعـالي جهـزي.. عنـدنا وزرا ونـاس كبار وستات أوستقراط.. (يقصد أرستقراط)...

بعـد بضـع دقـائق سـمع وقـع أقـدام تخطـو خطـواً رقيقـاً فـي الخـارج، وصـوتاً ناعمـاً يقـول: البيـه هنـا يـا بـدوي أفنـدي، فعـرف فـي الحـال أنهـا زازا. فـأخرج نظارتـه الذهبيـة ووضـعها علـى عينيـه، وتنـاول كتابـاً وفتحـه بسـرعة مـدعياً أنـه يقـرأ، كـان يحـب دائمـاً أن يـوهم زازا أنـه مثقـف. ولكـن الكتـاب الـذي وقـع عليـه اختيـاره هـذه المـرة كـان "الـدليل المصـري" وقـد ظهـر هـذا العنـوان علـى ظهـر الكتـاب بحـروف كبيـرة بحيـث رأتـه زازا مـن البـاب فأقبلـت وهي تبتسم.. حيت ثم قالت مداعبة:

دائمـاً قـراءة... بزيـادة بقـه، فـأغلق الكتـاب بـبطء شـأن مـن تعـب مـن كثـرة الـدرس. وقـال وهـو يـنهض قلـيلاً اتفضـلي، فجلسـت زازا علـى كرسـي بجـوار المكتـب، وأخـذت فـي الحـال تشـرح السـبب الـذي مـن أجلـه جـاءت إليـه، ولكنـه كـان منشـغلاً عـن حـديثها بـالنظر إليهـا والتأمـل فـي شخصـيتها السـاحرة. ولعلـه كـان يقـول فـي نفسـه: هـذه الفتنـة لـي وحـدي. سأضع مالي وعقاري كله تحت قدميها.

وكانـت المسـألة التـي جـاءت بشـأنها تخـتص بـأرض تريـد بيعهـا.. ذكـرت لـه موضـوعها فرأتـه شـارداً، فكـررت الموضـوع، وأخيـراً صـاحت سـاخرة مـش تنتبـه؟ فأفـاق مـن حلمـه وصـاح كاذبـاً واخـد بـالي، فسـألته ايـه رأيـك؟ فأجـاب بلسـان التـاجر نشـوف مشـترين آخـرين، قالـت ولكـن أنـا فـي حاجـة للمـال.. فـي حاجـة قصـوى، فوجـد فرصـة سـانحة فقـال مـش ضـروري تبيعـي الأرض رخيصـة الفلـوس موجـودة عنـدي خـدي اللـي انتـي عـاوزاه، فزمـت زازا شـفتيها فـي كبريـاء وقالـت أشـكرك. ولكنـي أريـد بيعهـا فلمـاذا لا تشـتريها أنـت. فلمعـت عينـاه بشـره، وتجلـت الخسـة فيهـا علـى أتـم صـورة وقـال فـي الحـال مسـاوماً: ربعمايـة جنيـه؟... وكـان هـذا أقـل ثمـن يمكـن أن يقـدم لقطعـة مـن الأرض تعـرف زازا أنهـا تسـاوي علـى الأقـل ألفـين.. فقالـت زازا وهي تكاد تضربه...

اتفقنا... فهمٌ بأن يتحدث في إجراءات البيع وما يستتبع ذلك فسمع وقع أقدام ثقيلة، فعلم أنها أقدام جليلة هانم... فحاول أن يمد يده لتنصرف زازا، ولكن زازا فهمت وجلست على الكرسي في إصرار. فلما أقبلت جليلة هانم تتهادى في وقاحة وغطرسة، قاست كل من المرأتين الثانية بنظرها وأيقنت زازا أن لها مع هذه المرأة قصة في المستقبل، وأيقنت جليلة أن زازا خليلة المقاول لأنها لم تكن تفهم في عقلها الضيق القذر أي صلة بين المقاول وبين زازا غير ذلك، ولذلك حقدت عليها في الحال. وشنت عليها الحرب في سرها، وعزمت على تحطيمها. أما زازا النبيلة الطيبة فقد نظرت إليها وكأنما تقرأ فوق صدرها البارز الضخم لافتة كتب عليها بحروف بارزة "مستهترة"...

أما المقاول فكان موقفه بينهما موقف المنافق الكبير، وقف وهو يقدم هذه لتلك. جليلة هانم زكي بنت المرحوم حسن باشا زكي... زازا هانم حلمي بنت زكي بك حلمي من أعيان الصعيد...

ثم فرك يديه ملتفتاً إلى زازا وقال كأنما ينبغي بذلك أن يتخلص منها: عندنا سهرة لازم تشرفينا الليلة دي، قالت متعجبة: فين، قال هنا في الشقة الثانية، قالت بأي مناسبة؟ قال كده تفريح، قالت يعني ايه؟ قال يعني شوية ويسكي، مزة خفيفة، بارتيتة بوكر.

خيل لزازا أنها يجب أن تنصرف في الحال.

ولكنها لجرأتها ووثوقها من نفسها أرادت أن تعرف، وخاصة أنه كانت تؤمن أن هذا المقاول يتطلع إليها بنظرة أكثر من نظرة الإعجاب والوله.

أحست بإحساس الأنثى الذكية أنه يطمع فيها كزوجة فحدثتها نفسها قائلة: وما المانع من كشف دخائل العريس المنتظر؟ إنها للآن لا تعرف عنه إلا أنه وكيل أشغالها، أما حياته الخاصة فهي تجهلها تماماً. فلماذا لا تلمح منها طرفاً على الأقل! فأجابت في ثقة أدهشت المقاول:

إني أقبل الدعوة بكل سرور والتفت إلى جليلة هانم كما يلتفت الواقف في قمة الجبل إلى شبح في السفح: وخصوصاً عشان خاطر جليلة هانم، فأدركت جليلة هانم في الحال أنها أمام امرأة عنيدة لا تتحطم بالسهولة التي تصورتها...

هنا دخلت ميمي، يتبعها صبي يحمل حاجيات السهرة فصاح المقاول غاضباً:

على الشقة الثانية جاية هنا ليه... فلما رأت زازا هذه السكرتيرة الجديدة وأبصرت ما تحمل، أضافت ميمي إلى جليلة، وقد انكشف لها الستار قليلاً، عن بعض دخائل الزوج المتوقع... وبحركة آلية مرت بيدها على جبينها، وقد عبر خيال ناني أمام ناظرها. وفي لحظة قارنت بين السماء التي يعيش فيها ناني، والأرض الموحلة التي يعيش فيها شريف. وقارنت بين حظيهما، وقارنت بين حياتيهما، وقارنت بين معيشتيهما، فكادت تتراجع هاربة، ولكنها تحب المغامرة وتحب التجارب الجديدة، ماذا عليها إذا غامرت، وماذا عليها إذا أضافت تجربة جديدة.. ولكن ناني... ناني لو رآها هنا، لو رآها في السهرة بين مقاول عربيد، وامرأة خليعة أيحسبها فتاة مغامرة فحسب؟

قطعت عليها الحوادث المتلاحقة في تلك الليلة سلسلة أفكارها، ومرت بها ككابوس مقدر عليها... فقد أعلن بدوي أفندي قدوم عفت بك وعفت بك هذا هو الذي يحل المشاكل، ويجيد الوساطة، ويحسن التصرف في معضلات الأمور...

دخل عفت بك فإذا هو في حدود الأربعين من العمر، طويل القامة، أنيق، حليق الشارب، يمشي في ثقة وزهو وفي يده عصا مذهبة...

فلما تمت مراسيم التقديم والتعارف. بدا أن عفت بك ارتاح لمرأى زازا، وقد أعجبه الصيد ولا شك.

وأدرك المقاول بغريزة الوحش أن عفت بك وجد الفريسة فكتم غيظه في نفسه، وضحك ضحكة المنافق المعتاد النفاق، وقال احنا النهارده جرب عظيم يقصد جروب.

ها ها ها..

وما لبث أن قاد ضيوفه إلى الشقة الثانية.

وكانت الشقة الثانية على طراز لم تزره زازا في حياتها، فقد خيل لها أن كل شئ في الشقة معد للاضطجاع، فقد فرشت بالأرائك العريضة التي لا يجلس الإنسان فوقها ولكن يرقد، ورأت على الجدران صور نساء عاريات، وتدلت هنا وهناك قناديل كهربائية ملونة أكثرها أحمر.

وكان المكان الباقي للجلوس لا يزيد عن مترين فيهما مائدة وثلاثة كراسي. أما المائدة فقد وضعت عليها زجاجات الويسكي وبجانبها المزات صنوفاً وأشكالاً.. افتتح عفت بك السهرة افتتاح الواثق، وهو يرفع كأسه، ويشير إلى زازا قائلاً في صحتك. وقد بدأ الهجوم بنظراته النارية في غير هوادة فلاقت زازا نظراته بغير وجل.

وأخذ المقاول يشرب ويأكل ويأكل ويشرب، ويلقي بالنكتة السخيفة وراء النكتة السخيفة وقد كان مؤدباً في أول الأمر ثم أخذ يتوقح، ويقول لزازا معتذراً من غير مؤاخذة أما جليلة فقد ادعت أن الدنيا حر، وأخذت تتخفف من ثيابها حتى كادت تصير عارية ثم أخذت تجاري صاحبيها في القفش ثم أخذت تشتم وتسب وتصخب، وكلما امتنعت زازا عن الشرب صبت لها في كأسها مزيداً، وكانت آفة زازا أنها إذا أحست بأزمة نفسية لجأت إلى الشراب تغمر به أحزانها وآلامها، وقد كانت في هذه الليلة بالذات ضيقة الصدر حزينة مهمومة فأغرقت نفسها في الشراب إغراقاً، وقد انصرفت عن تهريج هؤلاء ووقاحتهم واستغرقت في ذكرياتها.. ولم تعد تستبين إلا عيني عفت المحمرتين وهو ينظر إليها بنهم مفترس، وعيني شريف وهو ينظر إليها متوحشاً مرتاباً.. ورأس

الخليعة وقد تبعثرت خصيلات شعرها المصبوغ وانعكس النور على غضون وجهها فظهرت في سنها الحقيقي وكانت آفة زازا أنها إذا شربت أحست بحاجتها إلى تحطيم أي شئ إن لم يكن بيدها فبلسانها..

فقالت موجهة الكلام إلى عفت في غير قصد دمك ثقيل ولما كان يعتقد أن دمه خفيف فقد أصاب كلامها من كبريائه مقتلاً حقيقياً، فوقف غاضباً مهتاجاً، ومد يده متوعداً، فغام كل شئ في عيني زازا وشعرت بالعار والندم والبشاعة وأحست بحاجتها إلى التحطيم تزداد وتزداد، ثم رأت آخر ما رأت – المقاول يقذف شيئاً من يمينه، وسمعت صراخ جليلة وهي تقول يا سفلة.. ولم تدر زازا ما حدث بعد ذلك وإنما سمعت نفسها في الشارع مستندة إلى فانوس النور، وقد أحست بشئ سائل على خديها فتحسسته فإذا به دم.. دم.. فنادت على تاكسي لاح لها عن بعد، ودلته على عنوان منزلها ثم اعتمدت رأسها بين يديها وانفجرت باكية...لقد كانت مغامرة هائلة.

12 القرآن والإنجيل معاً

في عيادة ألبير فانوس مرة أخرى. العيادة خالية من الزبائن على خلاف العادة. وقد تمدد ألبير على كرسي طويل يقرأ القرآن. كان القرآن أعظم كتاب في نظره، ومحمد أعظم إنسان في التاريخ وكانت له في تفسير القرآن آراء يخشى الجهر بها لا لأنه يخاف إذاعتها ولكن لأنه قبطي. وهو قد يتحدث كثيراً إلى صديقه ناني عن إعجابه الشديد بآيات قرآنية فيها أسرار عميقة وبأحاديث نبوية فيها إحاطة تتجاوز مدى العقول البشرية. والعجيب أن ناني كان معجباً بعيسى مغرماً بالإنجيل وهو الآخر كانت له آراء في المسيح والإنجيل يخشى إذاعتها لا لأنه يخاف ذلك ولكن لأنه مسلم.

قرع ناني الباب ودخل ضاحكاً. ولكنه كان شاحباً. وأدرك ألبير هذا الشحوب بلمحة فوثب قائلاً ناني ناني وعانقه بقوة، كان يعانق نفسه.. جلس ناني، بل ارتمى على الكرسي. وكان يحمل معه كتباً فألقاها على المكتب، وأخذ يمسح عرقه المتصبب بمنديله، وقد أجهده صعود الدرج..

صاح ألبير قائلاً: ناني أين أنت يا شيخ.. ولكن أنت مرهق.. قل لي ماذا بك. قل لي في الحال أنت تقتل نفسك، تقتل نفسك بلا رحمة..

أنت رجل يحمل فوق كتفيه كل أعباء العالم بلا فائدة.. إن الذي يرسم مخك بالأشعة يجد فيه هموماً عالمية ومصرية، هموماً إنسانية عميقة، مسكين أيها المسيح العصري الحديث! ثم التفت إلى كتبه فوجد

أحدها من تأليف بابيني عن المسيح.. فاستطرد قائلاً إنك ستصلب بعد قليل.. ستصلب إن لم تقلع عما أنت فيه..

فقاطعه ناني وأنت يا سيد محمد ألبير ستلقى في محاربة الوثنية الحاضرة ما تنوء بحمله الجبال.. أنت تسخر بي وأنت لا تعلم أنك تتحدث عن نفسك.. ها أنت قد أقفرت عيادتك. ها أنت قد انصرف عنك الزبائن على وفرة علمك وشهرتك؟ إني سأصلب في الطريق وأنت ستشنق على باب العيادة.

ثم قهقه ضاحكاً ضحكته المشهورة.. ضحكة صادقة من الأعماق.. واستطرد قائلاً: عندما تخرجت من كلية الحقوق في 1924، فرحت دادتي آمنة وزغردت، ودعت ابنها مغربي وهو أخي في الرضاع وأعلنت أنها ستبيع حليها وستفتح له دكان سجاير في الحي الذي أفتح فيه مكتباً للمحاماة وقد حدث كل ما أرادت دادتي. أما مغربي فقد فتح الله عليه حتى اشترى العمارة التي بها مكتبي الآن أما أنا....

وهنا قهقه ضاحكاً مرة أخرى وقلب كفيه مشيراً إلى الفقر ثم استطرد قائلاً:

يكفي في هذا البلد أن تشتهر بالفضل حتى يقبل الفقر إليك باسطاً ذراعيه. فما بالك لو استطردت بالفضل، وطار لك صيت في الفلسفة، إن كل هذه الطبول المدوية ستغطي على مهنتك، وتطوي تحت جناحها عبقريتك في فنك.. أذكر يا ألبير أن أحد المحامين – لست أنا بالطبع – كان من أبرع من عرفت في مهنته، فالتفت إلى المسرح ونبغ فيه فلماً عاد إلى مكتبه وجده قاعاً صفصفاً! فلما مات هذا العبقري ودفن تولى أمر الجنازة صاحب المسرح الذي كان يؤلف له ذلك المحامي.. أما أنا فقد ضربت بسهم في كل شئ. ليس هناك باب من أبواب الفن والاجتماع والأدب إلا أدليت دلوي فيه. وبقي باب واحد من أبواب الموت هو المسرح، وهو يناديني في هذه الأيام ويصرخ بي قائلاً: هنا يمكنك

أن تـؤدي رسـالتك.. هنـا تخاطـب الجمـاهير.. فيصـيح بـاب مـن أبـواب المسـرح ساخراً.. من هنا يسير نعشك للقبر! وسيسير وراءه حفنة من الصعاليك..

فاصـفر وجـه ألبيـر وهـو يتخيـل كيـف كانـت عيادتـه منـذ شـهرين. ويقـارن ذلـك الوقـت بهـذا الفـراغ الهائـل الـذي يقضـيه ألبيـر ممـدداً علـى كرسي يقـرأ ويتثـاءب. إنـه لـم يتعـود الافتضـاء وقـد كـان مطمئنـاً إلـى أن هـذه الشـهرة وهـذا الزحـام، وهـذا الـدوي حـول اسـمه. كـل هـذه عليهـا نسـيج البقـاء والـدوام. ولكنـه بـين عشـية وضـحاها وجـد أن كـل هـذا فقاعـة أقـل مـن فقاعـة الصـابون. فـذكر كيـف كـان يسـخر مـن الطبيـب العجـوز الـذي لا تـزال لافتتـه فـي ركـن الشـارع. لقـد كـان ذلـك العجـوز ذات يـوم يعمـل فـي عيادتـه لمنتصـف الليـل. وقـد انصـرف النـاس عنـه فجـأة وبـلا سـبب. فأصـبح المسـكين لا يـأتي للعيـادة إلا إذا أخبـره التمرجـي بـالتليفون أن مريضـاً جـاءه للتـداوي. إنهـم انصـرفوا عـن العجـوز لأنهـم أخـذوا يجربـون الشـباب الجديـد، أمـا هـو وهـو بحكـم الشـباب الجديـد فلمـاذا انصـرفوا عنـه؟ انصـرفوا عنـه لأنـه فجـأة ظهـر فـي المجتمـع أخـذ يكتـب، أخـذ يخطـب، أخـذ يـؤدي رسـالة، فتهـامس النـاس فيمـا بيـنهم أنـه لا وقـت عنـده لفنـه ومرضـاه.. وهـا هـو قـد اعتـدى علـى رصـيده فـي البنـك، وهـا هـي هاويـة سـحيقة تحـت قدميـه يراهـا وهـي تكـاد تبتلعه.

قـال وقـد اصـفر لونـه موجهـا الحـديث إلـى نـاني يجـب أن تعتـرف يـا نـاني بمـا كتبـه رنـان مـن محادثاتـه الفلسـفية محـأولاً بـذلك أن يعـزي نفسـه وأضـرابه عـن المفكـرين فـي الفقـر والحاجـة أن المسـألة لا يجـب أن تؤخـذ أحـد بـل أخـذا عامـاً كميزانيـة عامـة، فمـن حـرم هنـا رزق هنـاك.أي أن اللّه يعطي الجاهـل مـالا لأنـه محـروم مـن العلـم والفكـر. ويحـرم أهـل العلـم والفكـر لأن عنـدهم ثـروة أخـرى! فصـاح نـاني قـائلاً ولكـن الميـزان ممتلـئ الكفـة فـي ناحيـة وخـالي الكفـة - خـال تمامـاً - فـي ناحيـة أخـرى.. حتـى أن العبقريـة مرادفة للبؤس دائماً.

مـاذا علـى الميـزان لـو مـال بالكفـة المـلأى قلـيلاً نحـو الكفـة الخاليـة فتـرك فـي قاعهـا رصـيداً ليـوم حاجـة، أو درعـاً يتقـي بـه يـوم جـوع.. أتعـرف يـا ألبيـر كـم فكـرت فـي بيـع مكتبتـي؟ لا لأنهـا سـتغنيني إذا بيعـت بـل لأن بيعهـا سيضـطرني اضـطراراً للتفكيـر فـي المحامـاة والقضـايا فقـط، وسـأكون محاميـاً أميّـاً، وإنـي لأعـرف آلاف المحـامين الأميـين قـد نجحـوا لا لأنهـم أتقنـوا القـانون بـل لأنهـم لا يعرفـون طريقـاً غيـر المكتـب والمحـاكم! وقـد التقطـوا مـن ثنايـا الملفـات والأحكـام، مـا تقـف العبقريـة أمامـه حـائرة تتصـبب عرقـاً.. ثـم توقـف عـن الكـلام وقـد بـدا عليـه الشـحوب والتعـب، وأخـذ يجفـف عرقـه بمنديلـه ويسـعل سـعالاً خفيفـاً.. وعـاد يقـول إن صـحتي سـيئة جـداً يـا ألبيـر وإنـي الآن أعـيش وكـل نفسـي ظـلام.. ظـلام.. ينيـره سـراج واحـد. حـب زازا.. فـإذا انطفـأ ذلـك السـراج.. تـداعيت مـرة واحـدة كمـا يتـداعى البيـت الخـرب.. ثـم رفـع رأسـه إليـه وقـال هـل قابلـت مارسـيل؟ فشـحب وجـه ألبيـر وصـمت لا يجيـب.. ولـو أن نـاظراً رأى وجـه الصـديقين فـي هـذه اللحظـة لـرأى شـبهاً عجيباً. رأى فرعي شجرة نبتاً من جذع واحد!

علـى أن ألبيـر مـا لبـث أن ضـبط أعصـابه وقـال فـي حنـان ورفـق إن قصـة مارسـيل معـي، هـي قصـة زازا معـك! أنـت ينيـر قلبـك سـراج مـن زازا، وأنـا أضـئ هيكـل عمـري بشـمعة مـن مارسـيل! زازا فتـاة قويـة كـالرمح السـمهري، ومارسـيل كالسـيف الصـقيل. زازا تحبـك، ومارسـيل تحبنـي، حبـاً طاغيـاً داميـاً، ولكنـه حـب كـالرمح إذا عشـق أو السـيف إذا صـار صـبا! إنـك لا تـدري فـي أي قلب سيغمد! ولذلك عليك وعليَّ أن نعري صدرينا ونعد قلبينا!

صـاح نـاني وقـد أعجبـه التشـبيه: إن الـرمح الـذي هـو زازا يغـامر معتمـداً علـى سـنانه ولكـن طرفـه كثيـراً مـا ارتـد إلـى وجههـا الجميـل وجسـمها البـض فخدشـها! لقـد رأيتهـا منـذ أيـام وقـد خرجـت مـن مغـامرة عنـد صـاحبها المقاول مخدوشة الوجه والجسم كعنتر عندما كان يكشف جسمه لعبلة!

هنـا ضـحك نـاني ضـحكاً مـراً.. ثـم عـاد يقـول: لقـد عاتبتهـا عتابـاً قاسـياً فـي ذلـك وسـألتها عـن السـبب فـي غشـيانها تلـك الأمكنـة التـي لا

تليـق.. فقالـت: دائمـاً تسـألني عـن السـبب؟ لا سـبب عنـدي.. وكانـت قاسـية أكثـر وهـي تقـول.. وقـد أتركـك، قـد أكرهـك قـد أمـل عشـرتك.. وأذهـب إلـى المقـاول وغيـر المقـاول.. بـلا سـبب. إنـي حـرة.. حـرة لـيس لأحـد سـيطرة عليَّ.. هكـذا قالـت آخـر مـرة يـا ألبيـر. ثـم اعتمـد رأسـه بيديـه وهـو يحـاول أن يخفـي دموعـه.. قـال ألبيـر متعجبـاً: هـذا نفـس مـا حـدث لمارسـيل، فـإن لهـا صـديقاً لـه يعمـل ميكـانيكي فـي جـراج قريـب، ولا يمكـن أن تمـر بسـيارتها علـى ذلـك الجـراج بـدون أن تقـف لعلـة مـا لتتحـدث إلـى فـوزي وطالمـا نالهـا أذى مـن الغوغـاء التـي تجتمـع فـي الجـراج فكلمـا عاتبتهـا تجيبنـي كمـا أجابتـك زازا.. إني حرة، حرة، حرة وصريحة.. ألا تحب الحرية والصراحة.!

هنـا سـمعت أقـدام مقتربـة، وقـد تمهلـت كأنمـا وقـف صـاحب هـذه الأقـدام يصـغي إلـى جـزء مـن الحـديث. فلمـا سـكت الصـديقان قلـيلاً – تقـدم الزائـر وكـان زازا.. رفعـت يـدها بالتحيـة وهـي تتكلـف ابتسـاماً ولكـن وجههـا كان يخفي عاصفة مكتومة...

جلسـت زازا علـى كرسـي قريـب منهـا وقالـت: ازيكـم قـال ألبيـر وكـان أهدأ جأشاً من صاحبه عال. إنتي فين من زمان؟

ثـم أدرك أنهـا أكثـرت مـن البـودرة حتـى تخفـي خـدوش وجههـا فقال بعد تمهل: زازا هل أنت قادمة من خناقة؟

وصاح نانـي ساخراً:

اسألها يا سيدي.

فوقفـت زازا ثـائرة، ووقفـت الخصـلة الصـغيرة بجانـب أذنهـا غاضـبة تتحـدى. ثـم قالـت وهـي تلهـث مـا شـأنكما بـي؟ يـا دكتـور ألبيـر إنـي مـا جئـت لتسـخر منـي. ولكنـي جئـت لكـي أستشـيرك فـي مرضـي. فـإن كنـت اليـوم لا تجـد وقتـاً لزبائنـك فسـأذهب لغيـرك. قـال ألبيـر وهـو يهـدئ روعهـا إهـدئي إهـدئي.. إن أعصـابك مهتاجـة جـداً هـذه الأيـام. ظنـي أنـك تعـانين ثـورة مكتومـة.. إنـك تعـانين صـراعاً هـائلاً.. لسـت زازا التـي كنـت أعرفهـا.. إن هـذه

الخدوش التي في وجهك مرآة لخدوش في روحك. قال ناني موافقاً إن زازا القوية تهوى تحت ضربات المجتمع.

قالت ساخرة أنت يا ناني الذي وطئك المجتمع وزحف عليك. لا أنا.. إن المجتمع تيار يجرف الضعفاء.. قال ناني وقد آلمه أن يجئ ذكر الضعف على لسانها أينا الضعيف؟ الذي يتحطم وهو يتأبى على المغريات، أم الذي يتحطم وهو يغامر في تيارها؟ أينا الضعيف؟ الذي أخذ حبه يتبعثر كلما استحكمت الأزمات أم الذي كلما ضاقت جمعت حبه في حزمة من الأعواد الصلاب؟ وصمت قليلاً ثم وقف وهو يقول في حدة أينا الضعيف؟ الذي يتغير بلا سبب أم الذي لا يتغير أبداً أينا الضعيف؟ الممتلئ صحة وعافية وهو غير مستطيع أن يقبض يده على مثله العليا فتفلت منه مثلاً بعد مثل، أم المريض المتداعي المنهار وهو يتشبث بمثله قابضاً عليها بقوة خارقة في يديه الضعيفتين.. أينا الضعيف؟ الذي يجرفه تيار المجتمع فلا يقاوم أم الذي قاوم حتى يتلاشى في السيل المندفع.

قهقهت زازا ملء فمها قهقهة ساخرة مرة، وقالت: مثل عليا، قوة مقاومة، لقد أضعت نفسك أنت وألبير بهذه الترهات وأضعتمانا معكما انسجما مع الواقع، اندمجا في الوسط، اتركا هذه المؤلفات التي تخرج بكما إلى عالم الأحلام والأوهام اقتصدا اشتريا أملاكاً ابتنيا عمارات اضربا في الزحام، لا تجلسا، اتركا الفلسفة التي لم يعد لها مكان على الأرض.

وقف ألبير محتجاً وقال: زازا زازا..

ووقف ناني محتقن الوجه وقال: يا أسفاً على الحب الذي ربط قلبينا ووحد مذاهبنا، ومزج آفاقنا.

قالت ثائرة وما شأن حبنا؟ دع هذا جانباً، دعه لا تمسه.

قال ناني: حبنا جدول ينبع من صميم قلبك وفكرك فكيف لا تعكره أفكارك الجديدة وفلسفتك الطارئة.

لا يمكن يا زازا أن يصفو حبك ويرنق فكرك.

لا يمكن أن يكون لك فلسفة في الحياة وغيرها في الحب.

زازا... زازا انتبهي لقد عشنا ونحن نرى مباهج الحياة ومعانيها تفلت منا فلم يبق في أيدينا غير معنى أو معنيين، نتشبث بهما تشبث الغريق، فإذا تخلينا عنهما فماذا يبقى لنا.

قالت مستمرة في عنادها، إني الآن لا أتعلق بقشي كما تتعلق، إني أتعلق بدعامات صلبة متينة.

قال البير: إحذري يا زازا.. هذا كلام خطير.

قال ناني: أرأيت يا البير! أرأيت كيف تنهار المثل ويتداعى منزل الحب، ويتبعثر الشمل ويتبدد الملتئم.

ثم ارتمى على الكرسي، وقد أمسك برأسه كأنما يمنعه من الانفجار.

وهنا استدارت زازا فجأة، وتركت الصديقين في دهشة بالغة وسمعا وقع أقدامها وهي تنزل الدرج بسرعة وغضب.

13 ليلة مع زازا

رجعت زازا من المعركة الثانية مضعضعة الأعصاب متخاذلة القوى. فقد أحست أنها في هذه المعركة غامرت بحبها وهو أثمن شئ في حياتها.. وأحست أنها حطمت ناني وهو أثمن شخص في وجودها. وأغضبت ألبير وقد كانت تقيم وزناً كبيراً لرأيه فيها.

وقفت عند البوابة الكبيرة، ونظرت في ساعتها على ضوء الفانوس القريب فوجدتها قد بلغت العاشرة مساءً، وأحست وهي واقفة بقرب الباب أن على البيت ضباباً مخيماً وقلقاً مجهولاً، وظلاماً جديداً، فأمسكت السقاطة ثم ترددت، أتدخل البيت لتفضي به إلى جدران غرفتها ثم تعود فتنطلق إلى مكان طلق رحب ترى فيه السماء رحبة واضحة، وتحس أذن السماء مصغية إليها فتتحدث إلى الذي يفهم بلا كلمات.

لكنها وهي في حيرتها، رأت نوراً يضاء في غرفتها، وما لبثت أن سمعت أقداماً تقترب في سرعة من البوابة، وفتح الباب في سرعة وعجلة، وإذا الأخت الصغيرة تنادي مضطربة أبلة زازا.. أبلة زازا أين كنت؟ إني قلقة عليك، لم أشعر بقلق عليك كما شعرت الليلة فأمسكت زازا بالباب وهي تكاد تسقط، فقالت ميمي ماذا بك ماذا بك.. استندي إلى ذراعي.. وسارت بها إلى السلم الصغير ثم إلى غرفتها.. وبكل رفق خلعت عنها ثيابها ووسدتها وأطفأت النور وأغلقت الباب وانصرفت على أخمص قدميها فقد أدركت من أول الأمر أن محاولة النوم شئ مستحيل. شعرت بصداع قاتل، فقامت إلى الدرج تبحث عن أسبرين. وتناولت قرصين، ثم

عصبت رأسها بمنديل، ثم فتحت الباب بهدوء وخرجت إلى الشرفة. أحست بشئ يخنقها، وشئ آخر يملأ محاجرها لهيباً فتمنت أن تلطف هذا اللهيب ببعض الدموع. ما هذه اللخطبة التي أوشكت تقلب حياتها رأساً على عقب إلى أين هي سائرة؟ إن المقادير تدفعها دفعاً إلى حيث لا تدري المقادير، كلا بل ذلك الإحساس الغامض بحاجتها إلى التحطيم إنه إحساس يعتريها فجأة، وبغير داع، وبلا إنذار، إن هذا الإحساس بالتحطيم، هو قدرها، هو سر قوتها، هو سر ضعفها، هو الذي جذب الناس إليها، وهو هو الذي جعلهم يرتابون في قلبها إنه التبر الذي يغطي قطعة الماس في منجم سحيق، خطر لها هذا التشبيه الذي سمعته من ناني ذات يوم، فأحست بشئ من التسرية، وعادت بذكرياتها إلى ناني. إن ناني هو صائد الذهب الذي آمن بالماس والمنجم، وكان يرى من خلال التبر بريق الأضواء المتألقة.. وطالما أصابه غبار ذلك التبر في ساعات التحطيم المفاجئة، فكان يمسحه عن وجهه وروحه كما يمسح المؤمن صدأ من الريبة يعتري الإيمان أحياناً.

ولكن ترى ماذا هو اليوم صانع؟ إنها لم تره في حياته منهاراً متداعياً كما رأته الليلة، زازا حبيبته ووحيه ونبراسه حطمت مثله العليا. ولقد كانت هي أول هذه المثل فأخذ ينظر إليها وهي ثائرة، كما ينظر مشيع الموتى إلى مقبرة ذات لحود ساخرة مما في جوفها وممن يحومون على شاطئها.

هنا لم تستطع زازا الصبر فأحست بالدموع المكظومة تصعد إلى مقلتيها، كما يصعد ماء البئر من الأغوار وتندفع كالسيل الغضوب. وهمست تحادث نفسها أو تحادث ناني بكلمات واضحة وإن لم تصغها في أبجدية؟ ناني ناني إني أحبك. أحبك لأنك مرآة نفسي. أحبك لأنك ترى ما خلف عيني وما وراء قلبي. ناني ناني. أتذكر حين كنت أنظر في إنسان عينك وأقول لك إني أرى ما وراءه؟ أتذكر حين كنت تنظر في إنسان عيني وتقول لي إني أرى روحك من خلال عينك.. ناني ناني من

غيـرك يسـتطيع هـذا. ومـن غيـري تسـتطيع أن تفهـم كبريـاءك وراء ضـعفك وقوتك خلف انهيارك وغناك خلف فقرك؟

نـاني نـاني.. لقـد كانـت لنـا دنيانـا وحـدنا، دنيانـا التـي لا يغشـاها أحـد سـوانا، دنيانـا الصـغيرة مجلسـاً وهـدوءاً، والكبيـرة أفقـاً وعالمـاً وسـمواً أينمـا التفـت فـثم ذكـراك. طالمـا قلـت لـك إن إحساسـي بحبـك هـو إحسـاس الـذي يعـيش تحـت قبـة خاصـة مـن سـماءٍ خاصـة بـه وبمـن يجـب وحـدهما. قبـة تظللنـي وتحـيط بـي وتنشـر ظلهـا، وعطرهـا حـولي.. وحينمـا كنـت أسـألك أن تشرح لـي صـورة حبـك لـي كنـت تقـول إن حبـي جديـد كـل يـوم فهـو أحيانـاً القبـة التـي تشـعرين بهـا وأحيانـاً هيكـل أنـت قدسـه وبخـوره، وأحيانـاً إحسـاس الفراشـة المعلقـة روحهـا برحيـق زهـرة تمنحهـا الحيـاة والنـور. وأحياناً. وهنـا سـبح خيالهـا إلـى ليلـة مـن الليـالي التـي لا تنسـاها. فقـد كانـت وحـدها فـي غرفتهـا بالمصـيف علـى شـاطئ البحـر. فقـرع البـاب ففتحـت فـإذا هـو نـاني.. لا تـذكر بالضـبط كيـف ارتمـت بـين ذراعيـه صـارخة. ولكنهـا تـذكر أن جسـداً تسـرب فـي جسـد وروحـاً تسـربت فـي روح، ولـم يعـد غيـر شـفتين ينطقـان زازا.. نـاني.. إلـى كـم مـن الـزمن. لا يمكنهـا أن تتصـور كـم بقيـا معتنقـين.. علـى أنهـا لـن تنسـى ليلتهمـا علـى الشـاطئ، ومرحهمـا كالأطفـال مـن مقهـى لمقهـى، ومشـرب لمشـرب.. مـن الـذي قـال إن نـاني قـد اكتهـل؟ كـلا كـلا، إنهـا لاتـراه إلا طفلهـا المـرح الحبيـب، إن السـن لينمحـي وآثـاره لتتلاشـى فـي ظـلال حـب كهـذا. حـب يتبحـر عـن صـفة، ويـأبى أن يكـون لـه حـدود.. ثـم أسـرع تنفسـها وهـي تـذكر عودتهمـا معاً، إلـى غرفـة واحـدة، تحـت ليـل واحـد، وسـقف واحـد. مـن الـذي يقـول إن عبـادة الجسـد محرمـة؟ مـن يقـول إنـه مـن الممكـن أن يوجـد حـب لا يشـعر الجسـد فيـه بالجسـد، وتلتقـي فيه الرجولة الكاملة بالأنوثة التامة؟

لقـد قبلهـا مـن رأسـها إلـى قـدميها، وكلمـا هـدأ عـاد، وكلمـا غفـا جفناهـا أيقظهـا وهـو يمـر بـأطراف شـفاهه علـى ذراعيهـا وخـديها.

واستيقظت مرة فوجدته يقبل طرف ثوبها، ومرة أخرى يمر بأنفه مراً رقيقاً على عنقها ليستاف عطرها.

إنها لتذكر كيف هربت من نار ذلك العناق كما يهرب الطفل من شئ يحبه ويخشاه في وقت واحد فتخلصت من ذراعيه وأخذتها إغفاءة آخر الليل، استيقظت بعدها على قبلة لاذعة، وخيال رجل تأبط أشياء مستعداً للرحيل..

آه إنها لن تنسى وداعه لدى الباب. كانت تحاذر أن تريه دموعها، وتقول له أخرج أخرج إني أكاد أبكي.. فلما خرج انكفأت على الوسادة تغمرها بدموعها.. أي امرأة تنسى حبها، وتحطم حبيبها.

أي امرأة تنسى الرجل الذي يقبل أطراف ثوبها عابداً، ويستاف عطرها، كما يستاف المؤمن عطر الجنة..

هتفت زازا لنفسها إني حمقاء. حمقاء. ما الذي يغريني بتجربة جديدة، وقوم جدد ما الذي يدفعني إلى شرك المقاول؟

ثم قامت وهي ترتجف ومضت نحو غرفتها، ووقفت تتأمل في صمت واحترام ركن ناني عندها، فتحت ناحية من خزانة ثيابها، فسرت إلى أنفها رائحة عطر. هذا العطر هو الذي تحبه وطالما قدمه ناني إليها، وهذه كتبه وهذه رسائله، نامت في هدوء، وتجاورت في صمت. لا بل تعانقت في جلال.. هذه السماء التي حلقا في أجوائها معاً، هذه القمم التي صعدا إليها، أو هذا السحاب البعيد كما كانت تدعوه كيف يمكن الهبوط منها إلى أرض مادية موحلة.. أغلقت الخزانة في أسى هادئ عميق، وبينما هي تغلقها وقع نظرها على سلة فيها فاكهة. فضحكت برغمها لأن هذه هدية المقاول، دسها في التاكسي وهي تنصرف عائدة من مكتبه.. كانت هداياه دائماً من هذا الطراز فاكهة أو سمك أو.. أكل دائماً أكل..

أخذت زازا تهدأ.. وأخذت نفسها ترتاح إلى خطة عزمت على انتهاجها.. وكان كل شئ يهتف في داخلها ناني ناني..

وكان الفجر يبسط جناحيه الحمراوين في حواشي الأفق حين آوت إلى فراشها متعبة واستيقظت قبل الظهر بقليل على نداء أختها، فقد دخلت تلهث كان معها خبراً هاماً. صاحت أبلة! أبلة فيه خطاب. وخالات يهنا. البسي حالاً اتزوقي علشان يشوفوكي أهل العريس. خالتي بتستعجلك.. فقهقهت زازا قهقهة عالية وقالت: ما هذا يا ميمي أنت مجنونة أنحن في عصر خطاب ألم ينقرض ذلك العهد بعد عهد أم محمود وأم علي الصورة والكرت.. فنادى صوت مرتفع من بعيد زازا زازا.. قالت ميمي هذه خالتي. ودخلت الخالة، فإذا بها تمثل الجيل المنقرض. امرأة بادية، ترتدي فستانا ذهب زمانه، ولبة في عنقها انقرض جيلها، وقد احتشمت بقدر ما تستطيع فأطالت أكمامها لرسغيها، وغطت رأسها بغطاء سميك يصل لأذنيها ويحجب شعرها الذي هربت منه نحو الخارج خصلات بين السواد والبياض.

تقدمت في جرأة وغطرسة وقالت لسه نايمة؟ إنتي يا زازا حالتك مش عاجباني ولي معاك قعدة طويلة.. كل ما يجيلك عريس ترفضيه. عاوزه تقعدي كده؟ يالا البسك علشان الخطاب منتظرين.

فتململت زازا وهمت بالرفض ولكن حبها للجديد، وشغفها للتجارب، جعلاها تقبل، وهي تقول في نفسها هيا لنرى ماذا علينا لو رأينا؟ وقامت فارتدت ثيابها وساعدتها خالتها على التزين وصاحبت بها بعد أن أتمت زينتها "قمر 14"! كان الخطاب ينتظرون في المنزل الكبير، والواقع لم يكن غير اثنتين الخاطبة وأخت العريس.. قالت الخاطبة يا صباح الفل وتبعتها بزغرودة مدوية..

وقامت أخت العريس للسلام، وكانت تقيس زازا طولها وعرضها، تحدجها بنظرات فاحصة، ويظهر أنها راقت في عينها، فأظهرت استحسانها وجلست في ارتياح قالت زازا ساخرة وهي تتعمد الدوران لتريهم قوامها وكامل شكلها "تشرفنا".. قالت الخاطبة ده العريس قد الدنيا غني، وعنده عمارات وأملاك وابن ناس كويسين وما يهموش إلا النسب الكويس والعيلات المحترمة. كان نفسه في سمار وقوام رفيع

وعيون عسلية أهو لقينا طلبه. ثم التفتت لأخت العريس كانت هائلة الحجم، زادت حجمها بثياب فوق ثياب وكست وجهها بطبقات كثيفة من الأبيض والأحمر معاكي الكرت؟ فأخذت تبحث بين طيات ثيابها وبعد عناء عثرت به فإذا به الكرت الذي تعرفه زازا وطالما سخرت منه هي وناني.. الكرت المرسوم به يدان مشبكتان، وتحتهما اسم "محمد شريف" مقاول ونمر تليفونات المكتب والعمارة والعزبة الخ..

فصاحت زازا كمن طعنها خنجر، وتماسكت وهي تكاد تسقط إعياء، ووضعت يدها على جنبها وهي تشعر كأن حربة طعنتها، فأقبلوا عليها يسندونها ويرشونها بالماء ويسقونها، وقالت النسوة "ياختي العرايس بيحصل لهم كده".

وقالت الخالة بنتي حصل لها كده في الخطوبة. وغامت الدنيا أمام زازا وتهالكت على الكرسي لا ترى غير ضباب اختلطت فيه أشباح النسوة بجسم المقاول، بصور قاتمة للخالة، وتراقصت أمامها الأشباح ولا تذكر ما حدث لها.

14 ليلة مع ناني

عاد ناني من المعركة الأخيرة كما عادت زازا، مضعضعاً. خرج من عيادة صاحبه الطبيب فأخذ يضرب في الطرقات على غير هدى. وانتهى به المطاف بطريقة آلية، قرب منتصف الليل إلى منزله. كانت النوافذ مغلقة، والظلام مخيماً ومتى عاد ذات ليلة فوجد النوافذ مفتوحة، أو وجد نوراً أو وجد أحداً ينتظره؟ إن هذا البيت صورة مصغرة من وجوده الكلي. نوافذ مغلقة، وظلام، ووحدة ليس فيها أحد ينتظر ولا يترقب! وقف لدى الباب، ونفسه تسائله أليس الأحسن أن نعود؟ أليس الأصوب أن ننتقل إلى أي مكان آخر؟ فيجيب هاتف آخر: أي مكان آخر؟ فيجيب هاتف ثالث بلهجة ساخرة.. أي مكان! فتلفت ناني حوله يبحث عن مكان. هذا الفضاء الواسع، هذا الأفق الرحب، هذه اللانهاية أليس فيها مكان لرجل غريب؟ لقد كان يضع رأسه المتعب على كتف زازا، ويشعر أن سماء غير هذه السماء احتوته، وأفقاً غير هذا الأفق قد ضمه، وشعر أن ذراعي كون جديد تحتضنانه وتلصقانه بصدر زازا.. وطالما تبادلا التحيات فوضعت هي رأسها على كتفه وأغمضت عينيها وهي تقول ما أرحب صدرك، وما أوسع كتفك، وما أحنى الكون الذي يضمني بينهما..

الآن يتمخض كل مكان عن "لا مكان".. هنا أمام هذا الباب الموصد والنوافذ المغلقة والظلمة المتكاثفة والصمت

العميق.. أعولت الريح فجأة، وثار تراب سخيف أحمق وقح، إن في استطاعته أن يدق "بالسقاطة" فيفتح البواب العجوز، فينقذه من ذلك الفراغ القاسي. فما الذي يمنعه؟ إن شللا عاما تولاه، فجمدت يده على البوابة. وقد أخذ يرى - أو تمنى أن يرى- هاوية تحت قدميه تبتلعه وتبتلع معه هذا المنزل العابس. وتبتلع معهما تلك الذكريات التي أخذت تكر عليه في لحظة واحدة بصور متلاحقة مرعبة.ذكريات صباه وشبابه وكهولته. ذكريات حبه، حبه مخفقاً عاثراً كئيباً. توالت هذه الذكريات عليه شبه دوامة تعوي عواء الذئاب.

فتولاه خوف لم يكن يعتريه من قبل. لقد كان طول عمره شجاعا. ولكن في هذه اللحظة بالذات شعر بالوحشة، والإفلاس، والهزيمة، والمرض، تطوف به وتنشب أظافرها في عنقه. وكان أبشع هذه الصور صورة المرض. عند من ينشد الشفاء؟ إن ألبير صديقه وطبيبه العزيز أخذ ينهار نفسيا، وأخذ يفكر في "وظيفة" حكومية أي فكر في الانتحار. وهذا المنزل ليس فيه يد واحدة تحنو عليه. إذن سيقضي من المرض في مستشفى أو مصحة.. بعيداً بعيداً عن كل حي حيث يتلاشى في صمت ويذوي كما تذوي الذبالة الضعيفة. ومن يدري أتعوده زازا، أم لا تعوده تذكره أم لا تذكره.. تبكي عليه أم تحبس عنده دموعها كعادتها! أخذت الريح تزداد إعواء، والتراب يزداد حمقاً ودوراناً، فوجد يده تدق السقاطة، رغماً عنه واستيقظ عم حسن العجوز وهو يقول بغضب "مين" ثم يتلوها بلعنات خافتة وهو يفتح البوابة.. لم يره ناني ولم يجبه، بل اندفع اندفاعاً نحو غرفته. ولما كان موقناً أنه لا فائدة من محاولة النوم، خطر له أن يقضي الليلة في المكتبة.. خطر له أن يجلس ليلة مع زازا ليصفي الحساب بينه وبينها على طريقته. يقرأ خطاباتها، يعرض

تـــذكاراتها، يحـــدثها كأنهـــا أمامـــه، يســـتبكيها، يعاتبهـــا، يســـترحمها، مـــن يـــدري ربمـــا ينحـــدر إليهـــا صـــدى مـــن لديـــه، يشـــق الظـــلام والســـكون والـــزمن لينفـــذ إلـــى قلبهـــا تـــواً. فكـــم مـــن صـــلاة صـــامتة أحـــدثت معجـــزة لا تنتظـــر. أليســـت خلوتـــه معهـــا الليلـــة صـــلاة؟ وكـــل ليلـــة قبـــل هـــذه ألـــم تكـــن القبلـــة التـــي يتجـــه إليهـــا، والـــوحي الـــذي يســـتلهمه، إن صـــورتها التـــي تمثـــل الجمـــال المصـــري بـــأجلى المعـــاني، طالمـــا وضـــعها أمامـــه فألهمتـــه وســـكبت نـــوراً علـــى قلبـــه وقلمـــه. هنـــا طالمـــا قـــرأ قضـــاياه. هنـــا طالمـــا كتـــب وفكـــر. هنـــا طالمـــا ســـهر يضـــع خططـــا يعتقـــدها تصـــلح الإنســـانية العرجـــاء. وكانـــت صـــورة زازا دائماً تقول له: إني هنا.

مـــد يـــده إلـــى الـــدرج حيـــث اعتـــاد أن يضـــعها فأخرجهـــا ووضـــعها أمامـــه، فـــإذا هـــي صـــورة لـــم يألفهـــا قبـــل اليـــوم. فقـــد ظهـــرت عابســـة، وارتســـمت ظـــلال تحـــت أهـــدابها لا يـــدري كيـــف جـــاءت وأطبقـــت شـــفتيها علـــى يـــأس ومـــرارة. وكانـــت نظرتهـــا فـــي الصـــورة الأصـــلية مســـتقيمة صـــريحة فـــإذا بهـــا متحولـــة عنـــه لا تريـــد أن تواجهـــه فارتـــاع مـــن هـــذا التغييـــر.وقـــد كـــان يســـمع بـــه وقـــرأ عنـــه فـــي الكتـــب، ولـــم يكـــن يـــؤمن بـــه فهـــا هـــو قـــد رآه رأي العـــين. حـــاول أن يعيـــد الصـــورة إلـــى الـــدرج، ولكـــن إحساســـاً غريبـــاً دعـــاه لتأملهـــا مـــن جديد.

لقـــد كانـــت الأولـــى تشـــع بالابتســـام، ويغمرهـــا النـــور فـــإذا بهـــا يغمرهـــا كلهـــا حـــزن غريـــب. ولكـــن البشْـــر لا يـــزال باديـــاً خلـــف الحـــزن والنـــور خلـــف الظـــلام، لقـــد كانـــت الصـــورة تشـــبه صـــورة الغســـق، والأشـــعة تتـــوارى خلـــف جنـــاح الليـــل.. كـــلا بـــل كانـــت الصـــورة تشـــبه وجهـــاً مشـــرقاً ضـــاحكاً أُســـدل عليـــه قنـــاع تنكـــري، لـــم يســـتطع أن يحجـــب تمامـــاً الســـحر المســـتتر وراءه، والفتنـــة الجاثمـــة خلفـــه ولـــم تـــتمكن العبوســـة الظـــاهرة مـــن إخفـــاء البســـمة الباطنـــة.. ولا القســـوة

المنتشرة ظلالها على القناع بقادرة على إخفاء الحنان الخفي الذي يشبه الماس الذي غطاه التراب.

أخذ يقبل الصورة برفق وتؤدة، وأخذ يهمس لها في صوت خافت قائلاً زازا.. زازا.. ما الذي ؟ غيرك التفتي إليَّ، ابتسمي لي. اخرجي من صمتك، ألا تعرفيني أنا ناني.. ناني روحك الثانية. لماذا تحولين عينيك عني؟ كلا كلا لم ترتكبي خطيئةً ولا إثما، وحتى لو كنت ارتكبت خطيئة فلماذا تحولين عينيك عني... زازا.. زازا أنا الغفران والصفح، أنا الصدر الرحب الذي يحتويك بذلتك أو ضعفك كما احتواك بكمالك وقوتك، هنا القلب الذي أعد لك ركنك فيه، ركنا أبدياً يبقى على الحياة وبعد الحياة. لو تلمسته وأنا حي مرت يداك على مكانك بارزاً واضحاً ولو تلمسته وأنا ميت ناداك من أعماق القبور.

زازا.. أتحسبينني مبالغاً؟ إن لم يكن ما بيني وبينك حباً فهو إيمان. وإن لم يكن ما بيني وبينك حباً فهو قوة، حملت حطامي وكسته عزماً لا لحماً، ووضعت يدها وراء هيكلي تسنده وتدفعه إلى الأمام زازا.. كم ليلة وضعت رسائلك أمامي وأعدت قراءتها كل خطاب منك صورة مصغرة منك. قفزة من اللهب، ووثبة من جحيم صغير ولكن هذه النار ما تكاد تحرق نفسها وتحرق الخطاب وتسري إلى قارئه، حتى تمتد يدك القوية فتحبس النار، ولا أقول تخمدها، وتكتمها في أغوار خفية، حيث تتلاقى هناك مع دموعك الحبيسة وكبريائك الدفينة.

زازا، أنظري ركنك عندي، هذه كتبك، وهذه رسائلك، وهذه تذكاراتك، هذه زجاجة عطر قديمة، لقد فرغ العطر منها، وتبقى عطر خفي لا يبارحها، وهذه صورة صغيرة سرقتها منك بدون علمك. إنها تبدي أروع صورة للجمال المصري، هذه نظارتك السوداء، هذا شعرك حين تصففينه على شكل كعكة

سمراء جميلة تستريح خلف رأسك الصغير. وهذان كتفاك العاريان النحيلان. كم تمنيت لو امتلأ قليلاً. ولكن كيف يمتلئان يا زازا ونحن نعيش كلانا على السحاب والضباب والقمر. أتذكرين مجالسنا على النيل. كنا دائماً نجد نفسينا وحيدين، كأن الله أراد أن يخلي الكون لنا في كل ساعة نتلاقى فيها. كان الطعام أمامك ولكنك لا تتناولين منه شيئاً.. كان أحلى شئ لديك أن تنظري للنيل وتسترسلي في الأحلام. وكان يستهويك منظر الضباب الذي يفصل بيننا ونحن في أعلى مكان، عن الأرض التي تحتنا، وكان يخيل إليك أن هذا الضباب دائم، وأنه يكسو الكون صيفاً وشتاءً.

هل كان هذا الضباب يا زازا انعكاساً من فكرك على الكون. لقد كنت أراه معك حين أنقبض لانقباضك وأصيح قبلك، انظري الضباب يا زازا انظري إليه يكسو أسطح المنازل، ويغلف اللافتات المضيئة التي تلوح من بعيد. وينحدر على النوافذ التي تبدو لنا هنا وهناك. وكنت لا أجده وأنت مرحة فرحة تجدين الكون كله عندي وعندك وفي ذلك المكان العالي الخالي.. لقد تغيرت أخيراً يا زازا كنت ترين هذا الضباب دائماً فبعد أن كنا نراه معاً، نراه بعين واحدة، صرت قليلاً قليلاً أراه بيني وبينك، ويأبى إلا أن يتكاثف حتى يصير ضعيفاً سميكاً. وكلما ازداد تكاثفاً زدت صمتاً وغموضاً. فكنت في يأسي أمد يدي العاجزة لأمزق هذا الضباب، وأهتك سر هذا الصمت. وكنت في صمتك تزيدين هذا الضباب حلوكةً وسمكاً. حتى صرت أراه حائلاً حقيقياً بيني وبينك تحن الذين لم يحل بيننا شئ أبداً، زازا أكنت تضعين هذا الحائل عمداً بيننا؟ كنت فيما مضى تبحثين عما يقرب الواحد منا للآخر، ويلصقه به، ويجعله لا يحيد قيد شعرة، كنت تقولين متى نعد منزلنا، وكنت تبحثين في الهرم وفي الجيزة وفي كل مكان بعيد

عـــن عـــش أحلامنـــا، وكنـــت أصـــنع مـــا تصـــنعين، أطـــوف بالمنـــازل، وأبحـــث عـــن الشـــقق وأســـأل سماســـرة البيـــوت، وكنـــت مثلـــك أبحـــث عـــن شئ بعيد بعيد جداً لايرانا فيه أحد ولا يزعجنا به أحد.

وكنـا نتلاقـى فتضـعين يـدك فـي يـدي وذراعـك فـي ذراعـي، متحديـة العـالم بـي. صـرت تحـاذرين أن يرانـا النـاس، وتتلمسـين الأمكنـة التـي لا تتطلع إليها العيون.

زازا.. أتخشـيننني لأننـي ذاهـب عنـك عمـا قريـب، أتخشـين هـذا القسم الذي اعتراني؟

أتخشـين هـذا الفقـر الـذي يجعلنـي أمشـي فـي الزحـام كعامـة الناس..

كـلا كـلا.. لقـد عرفـت. وكيـف أنسـى لقـد قلـت لـي إنـك تخشـين الفـراق يومـا مـا، وتخشـين أن نتحـد حتـى لا نسـتطيع الفـراق يومـاً وتلتـئم حتى يصير تمزيق الالتئام ممتنعاً بغير الألم والعذاب.

زازا زازا.. يالـك مـن قاسـية، أصـرت تـدربين نفسـك علـى الفـراق، وتروضين نفسك على البعد، ولأجل من هذا؟

زازا.. جربـي مـن تشـائين، إن أمامـك الشـباب والعمـر، سـتعاودك مهما حاولت النسيان قداسة هذا الحب وحرقة هذه الذكريات.

فقـد تجلسـين حيثمـا يمتـد بـك العمـر، ويكـون نـاني قـد نضـبت ذبالتـه، قـد تجلسـين فـي رفقـة قـوم تمـرحين ويمرحـون، فتصـمتين فجـأة، وقـد أبصـرت الضـباب القـديم معلقـاً بـين السـماء والأرض، ووثبـت إليـك الـذكريات منطلقـة مـن خزانـة خفيـة، وطـاف حولـك خيـال رجـل شـاحب يقبـل أطراف ثيابك ويستاف عطر عنقك الجميل.

مضـى نـاني فـي هـذا الهمـس حتـى سـمع وقـع أقـدام قريبـة، فأسـرع بإطفـاء النـور وتمهـل قلـيلاً.. ومشـى نحـو الشـرفة يتفـرس فـي النجـوم، ويكمل همسه مع الليل.

لـو أن آلـة تسـجل الهمـس الخفـي، وترسـمه كلمـات لسـمعت نـاني يقول لليل:

أنـت يـا ليـل كفـة ميـزان كبيـر، مـن يـدري لعلـك تـزن الـذنوب وتقيـد الخطايـا.. مـن يـدري لعلـك تـزن المواهـب وتعـد العبقريـات.. مـن يـدري لعـل هـذه الكفـة إن خفـت هنـا، ورجحـت هنـاك الكفـة الثانيـة. وراء الغيـب وخلـف هذا الحجاب الرهيب!

إن كنـت تـزن الـذنوب وتعـد الخطايـا، فلـي ذنـب واحـد، هـو أننـي وثقـت بالنـاس، وخطيئـة واحـدة هـي أننـي أعطيـت ولـم آخـذ، وبـذلت دون أن أنتظـر الجـزاء.. لا بـل هنـاك ذنـب أكبـر وخطيئـة أعظـم.. يـا ربـاه كيـف نسـيتهما! لقـد اعتقـدت أن الحـب فطرتـي للأبـد المجهـول والجمـال سـلمي إليـه، فبعـت نفسـي لهمـا، بعـت بـلا مقابـل، أتراهـا صفقة غـبن؟ أكـان ذلـك الحـب كلـه سـراباً، وذلـك الجمـال زيفـاً؟ لقـد عشـت مسـلم الـدين مسـيحي القلـب، فتعلقـت روحـي بعيسـى وإنجيلـه لأنهمـا جعـلا المحبـة كـل شـئ، ولمـا كـان الحـب والجمـال. فقـد ملكتهمـا صـنوان قيـادي.. أحببـت الوجـود، وأحببـت الحيـاة، وأحببـت كـل مـا فـي الوجـود والحيـاة، كانـت الرحمـة عنـدي تحيـل الـدميم جمـيلاً، والحـب يجعـل أتفـه الأشـياء نابضـاً بالأهميـة والمعنـى العميق.

لقـد عشـت طفـلاً، وشـببت طفـلاً، ولمـا كبـرت وجـدت نفسـي رجـلاً يمرح كالطفل، ويغضب كالطفل، وكان مرحه دائماً وغضبه سحابة.

ولقـد ألهـاني الحـب والجمـال عـن كـل شـئ آخـر فـي الوجـود غيرهمـا. فنسـيت المـادة، غفـرت الإسـاءة، وصـفحت عـن النكـران، وأغرقـت فـي هـذا حتـى إذا مـر عـدوي أمـامي، خيـل لـي أن أقـوم فأقبلـه لأنـه قطعـة مـن الكـون الجميـل، لـم تشـوهه يـد الفنـان الأكبـر ولكـن عبثـت بـه المقـادير.. فهـو إذن يتـنفس ويعـيش كمـا تتـنفس الزهـرة، ويعـيش الطيـر، ويلمـع لمعـان الـنجم وينطفـئ انطفـاءه، فـإذا نظـرت إليـه علـى هـذا الاعتبـار.. وكانـت نفسـي

الطفلة تأبى أن تراه في غير هذا الضوء.. فهو جميل لو أساء إليَّ، له قيمة ولو كانت أعماله تافهة..

هنا ارتسمت ابتسامةٌ عريضة على وجه ناني، لقد تذكر أنه منذ أيام كان جالساً في المقهى الذي اعتاد ارتياده، فإذا بشخص يقبل عليه من بعيد، فلما تبينه، قام إليه هاشاً، فلوى الآخر عنه وجهه وتجاهله، فلما انصرف ذلك الشخص تذكر ناني أن هذا الشخص بالذات أساء إليه في المحكمة وجرّحه تجريحاً قذراً؟ أيهما أحق أن يشيح بوجهه عن الآخر؟ المسئ أم المساء إليه؟

ثم عاد فتجهمت أساريره حين مر في خياله ما اقتضاه إياه الحب والجمال من ثمن. لقد كان عليه أن يكفر بهما من زمن مضى. ولكنه كان كالطفل الغبي الذي لا تنفعه التجربة ولا يفيد من ماضيه.

لقد كانت آفتاه النسيان والغفران.

فما تكاد تمر الإساءة حتى تنطوي بصاحبها وذكرياتها وصورها.. ولقد كانت قدرته على النسيان مناقضة كل التناقض لقوة ذاكرته، فهو إذا استعاد الذكرى استعادها بتفاصيلها.. بعصبها ولحمها ودمها، وإذا أغلق الكتاب جعل بينه وبين محتوياته سداً محكماً. فإذا استثار الذكرى القديمة مثير ما، عبرت الإساءة في أفق حياته كما تمر السحابة العابرة القاتمة ثم لا تلبث أن تنقشع..

وكانت الليلة باردة فأخذ ناني يشعر بوطأة البرد. وكان قد نسي – وطالما نسي قبل ذلك – أنه يعاني تعباً في صدره. ولم يكن يذكر ذلك إلا إذا اشتدت عليه وطأة التعب أو البرد، أو الهموم والمشاغل. وكانت زازا تؤمن دائماً بأنه شخص لا يموت.فإذا ذكر لها الهرم أو المرض احتجت في سخرية وهي غير مصدقة.

ولها الحق في هذا الإيمان العجيب فقد رأته يسقط ثم يقوم آلاف المرات. بل الواقع أنه ما كان يقوم إلا ليسقط، الأشياء نابضة

بالأهمية والمعنى رأته بين يديها ذات يوم شاحباً شحوب الموت. لقد جاء يزورها فسقط إعياء بين يديها، وأخذ نبضه يدق دقاً متلاحقاً كجواد في آخر الشوط. وتصبب العرق البارد من جبينه ورأسه فتوسد فراشها وذهبت تعد له شيئاً منعشا، ولكنها لم تضطرب، ولم يبد عليها ما يزعزع إيمانها بأنه شخص لا يموت، فأعدت له ما أعدت ورجعت فوجدته يتمالك قوته ويجلس قاعداً كأنه لم يكن منذ دقائق على أبواب الموت.

على أن الذي أخذ يشعر به الليلة لم يكن خرافة. فإن إرادة الحياة التي نفخت فيه القوة والصبر والاحتمال، أخذت تتخلى عنه.

عاد ناني إلى غرفته، وألصق جبينه المحموم بزجاج مكتبه. أخذ يشاهد بعينيه المتوهجتين هذه الكتب المختلفة التي قاسمته عمره.

وقعت عينه على قصة كان يقرأ شيئاً منها لزازا. كانت تعجب من روعتها، ولكنها كانت تقول إن فيها مبالغة. هذه قصة بطل من أبطال الألمان شوهته الحرب، ولم تترك منه غير حطام، ولم يكن يبعث فيه الرمق إلا إرادة الحياة، ولم تكن إرادة الحياة إلا أملاً يراوده، وذلك الأمل هو لقاء حبيبته.. فلما شاء القدر أن يلاقيها، عرف من تغيرها أنها تحب غيره، فلم يزل يبحث حتى عرف من هو.

15 وفاء القادر وتردد الحائر

نحن في مكتب المقاول مرة أخرى. اعتدل شريف بك في مكانه وفتل شاربيه إلى أعلى. وكان قد اشترى "كتينة" جديدة للساعة عبرت صدره وهي تلمع من ناحية لناحية كالوشاح الذي يرتديه الأبطال. توافدت وفود المهنئين، وسال الشربات أنهاراً غير أن المقاول لمح طلعة مقبلة من بعيد فقام لها إجلالاً وهرول مسرعاً وتلقى الزائر بالأحضان والقبلات كان هذا الزائر سليمان بك عم زازا..

والواقع أنه حضر من البلدة لسببين الأول التهنئة والثاني بناء على خطاب كتبه له المقاول بشأن زازا.

صفق المقاول بيديه صائحاً "شربات يا ولد".. ثم أخذت ألف أهلاً وسهلاً تتردد في نفس واحد. وألف "شرفتنا" تتلوها وألف "يا مرحبا" تلاحقها. وبعد توقف قليل، قال: أنا أرسلت لسعادتك خطاب..

قال سليمان بك وكان رجلاً يبدو عليه الجد، وفي ملامحه طابع العصاميين، وجهه غضن بخطوط التجارب، وتحت عينيه ظلال الفهم والمعرفة.. وفي يده عصا مذهبة. وطربوشه مرتفع فاتح به ثقوب من أعلى وكان المقاول قد أخذه إلى جانب وصار يحادثه همساً – قال:

أيه جاني وأنا ما عنديش مانع..

على أن هذا القول ما كاد يصدر من فمه حتى حدثت ضجة واضطراب بين الوافدين. وإذا بقنبلة آدمية تخترق الجموع وتنحدر صوب المقاول. وكانت هذه القنبلة جليلة هانم.

أسرعت إلى حيث يجلس المقاول وسليمان بك وهي غاضبة ثائرة، ووجهت الحديث إلى شريف بك لأنها لم تكن تعرف الآخر. صاحت على ملأ من الناس.

عايز تناسب كبار الناس وأنت بيتك.. أنا عارفه أنت ماشي مع مين اليومين دول.. ومع ذلك أنا رايحه أفضحها لك دلوقتي بالأدلة والإثبات. أنت فاكر زازا دي ملاك؟

فوقف سليمان بك معترضاً، وقال: لا لا يا هانم عيب الكلام في زازا.. كده علنا أنا عمها.. أقدم لك نفسي أنا سليمان حلمي من أعيان أبو تيج.. قال هذا ثم جلس صامتاً وهو يلهث.

وجاء دور المقاول الذي تغيرت سحنته وانقلبت أساريره وتحول إلى صورة بشعة.. فوقف مهتاجاً وصاح بها "يا بنت الـ..." ومد قبضته مهدداً، فصفعته على وجهه، فوثب نحوها كالوحش المفترس.

وتجمع الناس وحالوا بينهما، وكانت الشتائم تعبر جسراً من الناس حتى تصل إلى المقاول وبالعكس..

أما سليمان بك فقد اختصر الأمر بسرعة، وتهيأ للانصراف وهو يقول: متأسف يا شريف بك... حكاية زازا إصرف نظر عنها.

وقبل أن يدركه شريف كان قد انصرف.. ولم تلبث المعركة أن فضها المتجمعون بأن أخذوا جليلة قسراً إلى الباب، وأسلموها للشارع..

وانتقل المنظر إلى البيت في شبرا.

سليمان بك ينزل من التاكسي، ويقرع السقاطة بعصبية زائدة فتطلعت ميمي من النافذة وصاحت متهللة، عمي.. عمي.. وأسرعت لتفتح البوابة بنفسها.

جلس سليمان بك على أول كرسي قابله، وهو يلهث متعباً شاحب الوجه، ولم يبدأ أحداً بالسلام، ولم يسأل عن أحد وقابل تهلل ميمي ببرود.. وكانت زازا مريضة في فراشها فسمعت صياح ميمي وتهليلها بعمها، فأرادت أن تتحامل على نفسها لتقابله، فلم تستطع فلزمت مكانها من الفراش مرغمة فقام سليمان بك من كرسيه وهو ينادي: زازا.. زازا فسمع صوتاً خافتاً يناديه تعالى يا

عمي أنا عيانة.. فما مضى إلى غرفتها حتى راعه شحوبها. غاض جمالها، وتضعضعت عيناها، وظهر على خديها وهج مريب. فصاح متأثراً من متى أنت هكذا؟ ولماذا لم تخبروني.

أجابت: منذ يومين.

قال عمها من يوم أن جاء أهل شريف لخطبتك.. لعنة الله عليه.. لقد ذهبت إليه خليلته اليوم – وكنت قد ذهبت لمكتبه لأهنئه بالبكوية. وتضاربا كالسفلة أولاًد الشوارع وقد أهانتك المرأة بكلام جعلني أترك المكان لاعناً الجميع..

فضحكت زازا وقد سرى عنها، وقالت أتعلم يا عمي أن جليلة كانت ترسل سكرتيرة شريف جاسوسة عليً وكنت أعلم ذلك فأتعمد الذهاب إلى الأمكنة التي تثير عنده وعندها الظنون.

قال عمها وقد أخذ يفتح حقيبته التي سبقه بها الخادم إلى البيت ويبحث عن جلبابه ليرتديه:

الحمد لله كنا سنقع في شرك كبير. يخيل لي يا زازا أن مكتبه هذا غير نظيف السمعة لم تعجبني الوجوه التي رأيتها. هل زرته هناك يا زازا؟ هل أبصرت السكرتيرة التي تجلس بجوار الباب في الغرفة المجاورة. أرأيت شعرها، أرأيت الأحمر الذي لطخت به وجهها؟ وقد خيل لي وأنا أنظر بسرعة هنا وهناك وراء المكتب مكتبا آخر.

وضحك مقهقها وهو يضع طاقية بيضاء فوق رأسه وختم كلامه قائلاً: كنا حانقع كنا حانقع.. الحق عليً أنا اللي رضيت بسرعة. أعمل إية غشني اسمه في الجرايد.

وبعد هدوء قال:

وانتي بقى حاسه بإيه؟ نبعت للدكتور ألبير!

فقالت زازا متأسفة: إن ألبير التحق بوزارة الصحة وأغلق عيادته.

فضرب سليمان بك كفاً بكف وقال: يا خسارة يا ميت خسارة.. ده حكيم مفيش منه.

وبعد قليل وثبت زازا من سريرها، وقد ارتدت إليها حيويتها في سرعة عجيبة، وقالت: أظنك يا عمي جائعاً.. سأعد لك الغداء بنفسي.. عندنا وز وملوخية خضرا..

لم تكن زازا صادقة كل الصدق وهي تدفع عن نفسها التهمة التي ألصقتها بها جليلة، والتي سمعها عمها.

ولم تكن صادقة وهي تقول إنها مريضة منذ يومين.

فإنها حين تحجر قلبها على ناني بلا ذنب لم يكن هذا التحجر مشكلة هينة.

فهي قد غامرت بعد المغامرة الأولى التي وصفناها.

غامرت بضع مرات.وفي كل مرة كانت تخرج بعد المغامرة بتجربة جديدة فيظل جسدها سليماً موفور العافية، ولكن الروح غير الجسد. فإن الإنسان قد ينأى بجسده عن الجراح، ولكن الروح تنفذ غليها سهام خفية. وقد يبعد الإنسان عن شخص أو شئ، ولكن أثرهما يظل مستتراً في واعية مجهولة.. وكان من ذلك الأثر عند زازا أنها شعرت أنها عرفت كل شئ عن ناني فلم يعد به جديد عليها.. هي في الواقع قد سئمت موقف القدر من ناني، وملت فعل الحظوظ معه: الفقر والحاجة والأمانة والرجولة والكبرياء والطيبة: الطيبة خاصة. لا تدري لماذا كرهت هذه الطيبة أخيراً. كانت تعدها فيه مقدرة آدمية خارقة لم يجاره فيها أحد. كانت تعدها قوة، وتعدها في نفس الوقت ضعفاً مزرياً لا ترضاه لنفسها.

وفي الواقع لا يمكن تعليل هذا السخط الأخير إلا بأنه حجة تعتذر بها زازا أمام نفسها حين تتلمس السبيل للخلاص من ناني ومن حبه الذي أحسته يلاحقها ملاحقة مزعجة. وهناك تعليل آخر لهذا السخط. تعليل لمقتها هذا الضعف. فإن ضعف ناني جزء من ضعف آخر جعلها تتهمه بأنه إنسان فاقد العزيمة فاقد الوفاء. لماذا لا يقابل ناني

عمها ويقول له بجرأة الرجل وصراحة الرجل "إني حسين ناني المحامي وقد جئت لأطلب يد زازا؟"

لا شك أن ناني لم يكن هازلاً في حبها، ولكن هل كان حبه حب الرجل الضعيف دموع واستسلام للدموع، عذاب ورضى بالعذاب؟ أليس هذا الاستسلام ضعفاً؟ أليس الرضى بالعذاب مذلة وإلا فأين ثورة الرجل على الفقر، وثورة المتمرد على الألم والدموع؟

إن ناني غير كفء لحبها. إنه لا يحبها حباً قوياً كما كانت تعتقد. إنه حب سلبي هبط بقدره في نظرها. إلى متى تنتظر. وإلام ينتظر. إنها قد تخلصت من المقاول ولكن ماذا بعد المقاول؟ ألا يعرف ناني أنه يعيش في مصر. وأن الفتاة في مصر يجب أن تتزوج وأن من العار أن يطول لبث الفتاة في بيت أهلها؟

هذا ما كان يدور في خاطر زازا وهي تتهيأ للخروج لتلاقي ناني وتبوح له برأيها الجديد فيه. وتلقي في وجهه بكل ما باتت تحس به نحو جبنه وتردده.

16 اللقاء الأخير

في الوقت الذي اتهمت زازا فيه ناني بتخليه عنها، وبنكثه للعهد الذي بينهما، كان ناني يقاوم ما تجمع فوق منكبيه من المشاكل والأعباء. ويقاوم ركود الحظ الذي وقف في سبيله كصخرة لا تتحرك. ويحاول أن يدفع مركبه العاجزة الشراع في ماء آسن.

وكان يصد بيمينه وشماله المنتفعين بطيبته والمستغلين لنبله. وكان فوق هذا مريضاً مريضاً جداً. كان ينفث دماً أخفاه عن زازا، ولم يشأ أن يزعج زازا به. ولكنه كان يعتزم أولاً أن يقوم بواجبه نحو زازا، ثم يذهب إلى المصحة ليتداوى. فاستيقظ ذات صباح، وهو عازم على السفر ليقابل عم زازا. وليطلبها منه مهما كانت النتيجة. لم يكن يعرفه شخصياً ولكن ماذا يهم ؟ المهم هو أن يتخذ هذه الخطوة الواجبة.

وأخيراً فضل أن يكتب إليه أولاً.

فذهب إلى مكتبه وتخلف عن المحكمة في ذلك اليوم لأنه أراد أن لا تشغله المشاغل عن ذلك الخطاب. فما تناول ورقة وجلس للكتابة حتى سمع وقع أقدام، فعرف أنها زازا، فأمسك عن الكتابة..

دخلت زازا.. وكانت تبدو جميلة. جميلة جمالاً عجيباً فأخذ بجمالها الفاتك. غير أنه لمح في عينيها غموضاً وريبة لم يستطع معرفة سببهما، وكذلك لم يستطع إنكارهما ولكنهما على أي حال لم يكونا بشير خير له. ولما كان يؤمن بإحساس قلبه فقد أنذره شر خفي أن عاصفة تقترب. أو نهايةً لشئ ما. أو ستار

سينسدل عن قريب. فأخذ قلبه يدق دقاً عنيفاً. غير أنه تمالك نفسه ورحب بها وقدم لها كرسياً فجلست عابسة.

ثم قالت بعد قليل: عمي في مصر. وعاوز يفوت عليك علشان عنده قضية. وأنا قلت له عليك ومدحت له فيك.

فابتسمت أساريره وقال: إني في خدمته.

قالت: ما علينا... عايزة أقول لك إن طرقك في الحياة مش عاجباني. عزلتك وطيبتك وامتناعك عن السعي كما يسعى الناس في مصر... وعايزة أقول لك إن كتابك الأخير لم يعجبني. أفكاره دون المستوى الذي كنت أنتظره.. ألا تعجبك صراحتي. أنت تعرف أني لا أخفي عنك شيئاً وأريد أن أقول لك إني أكره أختك وأكره عطفك عليها.. معذرة لتدخلي في شئونك..

قال ناني مندهشاً:

- زازا زازا

فاستطردت قائلة بدون أن تستمع إليه:

شريف بك خطبني ولكن عمي فضها..

ثم سكتت قليلاً لترى تأثير ذلك الخبر عليه.

فلم يزد ناني على ذلك أكثر من تنهد المرتاح..

ولكن زازا عادت تتكلم وقد وقفت كمن في نفسه نقمة طويلة يريد أن يصبها. فبدت فاتنة فتنة قاسية. كانت الثورة الدفينة تخلع حمرة متوهجة رائعة على خديها وكانت الخصلة التي تحاذي الأذن قد أطلت كأنما تريد أن تقول شيئاً. وكانت الشفتان الرقيقتان قد انضمتا على تصميم كساهما جمالاً مرعباً.

ورجع ناني يحاول أن يجد خلال هذه النقمة الدافقة شيئاً ليقوله لزازا فلا يستطيع.

كان يعجب لهذا التحول، كان يريد أن يقول لها أن أحواله آخذة في التحسن، وأنه قد يولى منصباً كبيراً، وأن مؤلفاته لقيت تقديراً في المجمع اللغوي، وأنه سمع أنه سيصيب جائزة العام، وكان يريد أن يقول لها أنه عازم على السفر معها إلى مكان بعيد، حيث ينسيان متاعبهما وينعمان ببعض الراحة.

كان يريد أن يقول كل هذا ولكن زازا وقفت فجأة وقالت:

عمي في البيت تعالَ عندنا في المساء.

فأجاب ناني ممتثلاً: سأزوركم ثم نخرج معاً – هو وأنا- لنتحدث حديثاً هادئاً.

ثم قال بعد تردد:

أو نستطيع أن نتمشى جميعاً في مكان ما، ثم أخلو أنا به وحدنا.

قالت زازا وهي تهم بالخروج:

على كيفك.

ولما حل المساء كان ناني في بيت زازا، حيث قابله عمها مقابلة رقيقة، واحتفى به احتفاءً طيباً، فقد كان سمع باسمه كثيراً وقرأ له وعنه مئات من المرات.

والواقع أن ناني كان أبعد الناس عن أن يرى لنفسه هذا المقام في قلوب الناس، وخاصة عند رجل ثري يقيم في أقصى الصعيد.

أما لقاء زازا له فكان لقاء سخيفاً. فانتهز فرصة قيام عمها لبعض حاجته، فسألها إذا كانت مصممة على استصحابهما، فأجابته بالنفي منادية إياه "يا أستاذ"، فاستغرب سماع هذه الكلمة منها، ووقعت في نفسه وقع الصاعقة، وانقبضت لها أساريره، وأحس أن القدر يلعب دوره اليوم على لسان زازا بهذه الكلمة السخيفة، وشعر أن زازا تناديه اليوم كأنه شخص جديد عليها. وعجب من أنها في اليوم الذي تريد أن تتم الصلة بينهما تريد أن تقطعها. أكانت تضعه موضع التجربة. أكانت توازن في نفسها بينها وبين "شخص آخر" لا يعرفه، فإما نجح ناني اليوم أو نجح الثاني غداً.

ألهذا الحد تغيرت روح زازا؟ ألهذا الحد يمكن أن يخدش المجتمع نفساً طيبة فيكدر مرآتها الصافية؟! أيكون الصحيح أن صحبته لها وحرصه على أن تكون زوجته في المستقبل أنصع ما يمكن صفحة وقلباً وفكراً، أيكون ذلك كله أقل من أن ينفع في بيئة جارفة الفساد؟

لم تدعه زازا يطيل التفكير فقد جاء عمها، وأصرت مرة ثانية على عدم الخروج معهم بحجة المرض، وتركت أختيها تذهبان معهما.

وقد تقضت الليلة في حديث عادي، فقد أخذ سليمان بك يقص على ناني قصة القضية التي حيرته أعواماً طويلة وناني يعطيه من خبرته ما يستطيع، ويعرض عليه خدماته كلها، وكانت الأختان تتعشيان في صمت، وتتوقعان أن يقوم الرجلان لخلوة فترجعان في السيارة وحدهما، فلم يحدث من ذلك شئ. لأن ناني شعر أنه من العبث أن يتحدث الليلة عن زازا وهذا شأنها معه، وهذه نقمتها، وهذه نفسها المتغيرة الصاخبة، وقد أخذت ظلال الريبة في أمرها تنتشر في نفسه كضباب غائم، وأخذ الشخص الآخر يلوح في خياله كعدو بغيض وقد خطر له بالأكثر أنها تخلفت عن هذا اللقاء لتلقى غريمه المجهول.

وانقضت الليلة في صداقة طيبة بين سليمان بك وناني، حيث دعا سليمان بك ناني إلى زيارته في الصعيد فوعد..

ولكن ناني كان يشعر في نفسه أن هذه الصداقة جاءت متأخرة جداً.

17 في المصحة

لا يـــدري نـــاني كيـــف دخـــل المصـــحة ومتـــى. إنـــه لا يعـــرف إلا أن هـــذه المصـــحة فصـــلٌ ختـــامي فـــي روايـــةٍ داميـــة. كـــان ممـــدداً علـــى سريره في الدور الأعلى وفي يده منديل مخطط ببقعة قرمزية..

المنظـــر ســـاحرٌ جـــداً، حيـــث يطـــل المســـجى فـــوق هـــذا الســـرير علـــى نهايـــة المدينـــة ونهايـــة الحيـــاة، ســـرير رخـــيص مـــن أســـرة الدرجـــة الثانيـــة. وقـــد مـــر بـــه يومـــان لـــم يـــزره خلالهمـــا أحـــد لأن المصـــحة كلهـــا مشغولة بابن أحد الوزراء.

ابـــن الـــوزير الصـــبي الـــذي لـــم يبلـــغ الحلـــم، تقـــف لـــه المصـــحة كلهـــا علـــى قـــدم وســـاق، ويجتمـــع الأطبـــاء كلهـــم فـــي غرفتـــه ليـــل نهـــار ويلـــزم المـــدير بابـــه، وتخلـــى الحجـــرات التـــي حولـــه لكـــيلا يزعجـــه أحـــد، وتمنـــع الزيـــارة بتاتـــاً مـــن المصـــحة بحجـــة مـــن الحجـــج خوفـــاً علـــى مـــزاج المـــريض الصـــغير، وقـــد ســـمع نـــاني مـــن أحـــد التمرجيـــة أن غرفـــة ابـــن الـــوزير رتبـــت بـــالورد وأن ثلاجـــة كبيـــرة نقلـــت إليهـــا. وســـمع كـــذلك أن الحقـــن يعملهـــا المـــدير بنفســـه وهـــو الـــذي يـــأنف مـــن الكشـــف بنفســـه وإذا حدث أن كشف مرة يغسل يديه بلتر سبرتو!

ولمـــا اشـــتد الســـعال علـــى نـــاني وارتفعـــت الحمـــى لـــم يجـــد بـــداً مـــن أن يكتـــب ورقـــة صـــغيرة مؤدبـــة للمـــدير. فجـــاءه رد وقـــح. وانتظـــر أن يـــزوره زائـــر مـــن أصـــدقاه أو أهلـــه، فلـــم يحضـــر أحـــد. فأخـــذ يراجـــع نفســـه ويتـــذكر كيـــف جـــاء إلـــى هنـــا. إنـــه يـــذكر وجـــه صـــديقه ألبيـــر

كحلم بعيد.. ويذكر أنه كان في مكتبه في الظهيرة حيث زارته ميمي وأخبرته أن زازا خُطبت، ولكنها تريد أن تراه للمرة الأخيرة في المساء. ويذكر أنه ذهب للقاء زازا حيث اعتادا أن يلتقيا، في ذلك المكان العالي المطل على النيل..

ويذكر كذلك أنه كان محموماً في ذلك اليوم، وأنه كان يسعل وينفث دماً، ولكنه كان حريصاً على ذلك اللقاء بينه وبين زازا. حريصاً على أن يستبين من أمرها ما غمض عليه. ويكشف من دخيلة نفسها ما استبهم عليه في الأيام الأخيرة.

هنا دخلت الممرضة الحسناء التي تتولى الإشراف على هذا الجناح من المصحة، ومن غير اكتراث مدت يدها بالترمومتر فأخذه منها ووضعه في فمه صاغراً. وبينما كانت تمر على المرضى معاملة إياهم بالمثل وقفت تتفرس في وجه ناني فجأة. أخذت تتذكر أين رأت هذا الوجه من قبل. كان ناني متوهج الخدين، ذابل الجفنين وقد نبت شعر لحيته وشاربه فغيرا ملامحه كل التغيير. فأدرك ناني أن الممرضة تتفرس وجهه وتحاول أن تتذكره فأخرج الترمومتر وقال لها بلطف أنا حسين ناني المحامي.

فقالت بدهشة: أنت؟ أنت الذي أثرت الضجة الأخيرة بمقالاتك الصارخة عن المرأة وحقها في الحياة والحرية... مقالاتك التي أثارت استفهامات كثيرة، وكنت أنا إحدى اللواتي كتبن إليك بالثناء والإعجاب.

أجاب بمرارة: نعم أنا.

قالت: لقد رفعت المرأة للسماء وألهتها تأليها.

قال بمرارة أكثر: نعم..نعم.

قالت: هل وجدت المرأة التي جعلتك تؤمن بجنسنا هذا الإيمان؟

فسكت ولم يجب. وتحسس جنبه كأنما يلطف وخزة أليمة فقالت الممرضة هل تتألم من شئ؟

قال بسرعة: لا شئ.. لا شئ..

قالت وهي تنصرف.. سأعود إليك بعد قليل.

عاد ثاني بيده على مكان الطعنة من جنبه، فأحس وخزاً أليما حقيقياً.

وأخذت الشمس تغرب، وكان منظرها وهي تنحدر وراء الجبل منظراً فخماً جليلاً. هذا المنظر الذي تطلع إليه وزازا بقربه وهي تشير إليه: ثاني انظر الغروب بديع. ونهاية الحياة رائعة كبدايتها. الموت والميلاد معجزتان عندما ولد حب زازا كان هذا الميلاد ميلاداً عبقرياً حقيقياً. فقد ولدت معه نفس ثاني وولد معها نبوغه وتدفق إنتاجه. واليوم حين تغرب الشمس، يغرب ثاني، ويغرب الحب الذي في قلبه، مغرب مثلث جميل دامي الحواشي، مصبوغ الجنبات..

حين جلس مع زازا في ذلك المكان العالي المطل على النيل، حين جلس للمرة الأخيرة كانت زازا أجمل من الغروب وأعذب من ماء النيل. وأغلى من كل شئ في الوجود. وهو يذكر أنه في ذلك اليوم جلس صامتا كمن اعتزم سماع الحكم عليه من قاضيه.

وجلس ذلك القاضي صارماً عاتياً في جماله وكبريائه وغضبه.

ماذا سمع المتهم؟ سمع القاضي الجميل - زازا - يقول له: أنت أيها المتهم إنسان لا يستحق أن تحييه امرأة كزازا... لأنه أقل من أن يفهم حبها، أو يكون كفؤاً له.. أنت أيها الإنسان عادي.. عادي جداً.. وكانت هناك امرأة مخدوعة تتخيلك مثلها الأعلى.. فإذا بك..

فقاطعها ناني بشهقة هستيرية..

فلم ترحمه، واستمرت قائلة: إن في قلبي جراحاً دفينة منك. ونقمة غائرة. وسلسلة من الشكايات الكامنة..

واستمر القاضي الجميل يدفع المتهم، وقبل أن ينطق بالإعدام أحس المتهم بروحه تكاد تزهق فأشار بضرورة الانصراف.

وأحس القاضي بأنه لم يجهز على المتهم بعد، فانتهز فرصة ذلته وعدم قدرته على المقاومة وقال له: هيا إلى بيتنا. ولا شك كان قصده أن يجهز عليه على مشهد من أعذب ذكرياته وأغلاها.

ولم يكن ناني يمانع في هذه الميتة الغالية.

فلما بلغا البيت، ودخلا غرفة الانتظار جلست زازا على كرسي تجاهه وهي عازمة على إتمام المذبحة. قالت: إن حبك ناقص. إنك تحب على طريقة خيالية مضحكة.

فلم يجب. وإنما مر في خياله أنه أحبها أصدق الحب وأوفاه أحبها حبا يجمع رعاية الزوج إلى عشق الحبيب إلى حنان الأب إلى حنين الطفل الرضيع لأمه.

فاسترسلت قائلة: لقد كنت تخدعني، وكنت تغرر بي.. ولم تكن نفسي صافية من ناحيتك وما أظنها ستصفو لك، لقد خذلتني ولم تقف بجانبي موقف الرجل.

فوقف وقد كثر عليه كل ذلك واندفع إلى حيث كانا يجلسان في الأماسي الطويلة، إلى كرسيها، إلى خزانة ثيابها، إلى مشجبها حيث علقت ثيابها أخذ يقبل كل هذا ويبلله بدموعه، ويدفن رأسه فيه كأنما يدفنه في قبر يتلقاه مرحباً به..

فصاحت به: ناني ماذا تصنع.. إنك تفعل فعل الذي لن يعود أبداً..

قال بصوت كفحيح الأفعى: أبداً.

فأشارت إلى صورة كبيرة:

- ناني.. هذه زازا

فقال بصوت جريح: لم يعد لي شأن بها.

وجلس على كرسيه الذي ألف الجلوس عليه فقبله وذرف الدمعة الأخيرة.

ثم هرول منصرفاً وهي تحاول أن تمنعه فلا تستطيع..

فما خرج من الباب حتى أحس بإغماء، وبحاجته إلى من يتداركه قبل فوات الوقت. فأسرع إلى حانوت قريب. واستأذن في الجلوس إلى كرسي فسمح له صاحب الحانوت. وأحس بشئ يرتفع في حلقه ويتدفق، فإذا دم صبيب فجال بعينيه يبحث عن شيء معين فوجد تليفوناً قريباً منه فطلب صديقه ألبير.. طبيبه الحبيب.

هذا كل ما يذكره.

عندما أتم هذه الذكرى كان الليل يزحف من خلال النافذة.

وكان النور في غرف المصلحة ضئيلاً كئيباً..

فلم يجد بُدّاً من النوم، لم يجد بُدّاً من إغفاءةٍ يسدل بها ستاراً على قصة لم تعد الذكرى بها مجدية. إغفاءةٍ يطلبها الإنسان أحياناً فراراً من الوقت، وقطعاً لأيام ثقيلة بغيضة. وطلباً ليوم آخر قد يجئ بخيرٍ جديد، أو أملٍ غير منتظر...

وحقاً لقد جاء اليوم التالي بأخبار.. فإن ابن الوزير قضى نحبه، وبعد أن ذهبوا به في كل أبهة الموت اللائقة بأبناء الوزراء. التفت أطباء المصحة لمرضاهم.. فأقبل المتغطرس على ناني وهو يقول: خَوَتْني. ثم أخذ يجس النبض، ثم تناول مسماعه.

وفي هذه اللحظة قدم زائر هو ألبير.. فوقف عن بعد منتظراً أن ينتهي المدير من كشفه... وأخيراً أقبل في هدوء نحو ناني بعد أن حيّا المدير وصافحه كزميلين قديمين ففتح ناني عينيه ببطء وفرح أن من نعم الدنيا أن يكون للإنسان صديقٌ واحدٌ. وأن يراه في آخر لحظات حياته.

جلس ألبير ثم أخذ يسرد على ناني أخباراً سارة.. الوظيفة الكبرى التي وعد بها أصبحت له بلا منازع. أخته أمينة انتقلت إلى شقة جديدة مع أولادها وعريس ابنتها الجديد.

المجمع اللغوي قرر إعطاءه الجائزة، المجد ينتظره.

المال ينتظره.

الدنيا كلها تهتف باسمه.

عليه أن يشفى بسرعة ليتمتع بكل هذا..

فابتسم ناني ابتسامة شاحبة ميتة...

لقد جاء كل هذا متأخراً، وما فائدة.. العيش حتى ينال نصيبه منه.. ماذا يجدي. كل هذا وقد ذهبت زازا.

قصيدتان لناجي عن زازا

1 زازا

أنـــا وحـــدى فـــى البيـــدِ حيـــرانُ هـــائم
فمتـــى تَـــذْكُرُ القِفـــارَ الغمـــائمْ
رحمـــةً يـــا ســـماءُ إن فمـــى جـــفّ
وحَلْقـــى عـــن المـــوارد صـــائم
غـــاض نبـــعُ المُنـــى ولـــم يبـــقَ حتّـــى
ومضـــةُ الحُلْـــم فـــي محـــاجر نـــائم
أيهـــا الطـــاعمُ الكـــرَى مِـــلءِ جفنَيْـــك
وجفنـــى مـــن الكـــرى غيـــرُ طـــاعم
أبْكِنـــى واسْـــتَبِدْ بـــي واقْـــضِ ماشـــاء
لـــك الحســـنُ فـــيَّ واظلـــمْ وخاصـــم
غيـــرَ هـــذا النّـــوَى فـــإنّ ليـــا
ليـــه ظـــلالٌ مـــن المنايـــا حـــوائم

تضـــــــمحلُّ الحيـــــــاةُ فيـــــــه وتنهـــــــدُّ

كـــــــأنّ النهـــــــارَ معْـــــــولُ هـــــــادم

لا تَكلْنِـــــــى لـــــــذلك الأبَـــــــد الأسْـــــــود

فـــــــى قـــــــاعِ مُزْبِـــــــدِ الُّلـــــــج قـــــــاتم

لاتكلْنِـــــــى لِهُـــــــوَّةٍ تعصِـــــــفُ الأشـــــــباح

فـــــــى جَوْفِهـــــــا وتَعْـــــــوى السَّـــــــمائم

لا تكلْنِـــــــى إلـــــــى جنـــــــاح عُقـــــــابٍ

فـــــــى ضـــــــلوعى مُحَلِّـــــــقِ الرُّعْـــــــب جـــــــاثم

لا تكلْنِـــــــى لضـــــــائعٍ فـــــــى حنايـــــــا

هَـــــــا غريـــــــبٍ فـــــــى مَهْمَـــــــهٍ مـــــــن طَلاســـــــم

يســـــــأل الزهـــــــرَ والخمائـــــــلَ والأنْـــــــوار

عـــــــن ترْبِهـــــــا الضـــــــحوكِ الباســـــــم

ذاق مـــــــا ذاق فـــــــى الصـــــــبابةِ إلاَّ

ذَبْحَـــــــةَ الـــــــرّوح وانفصـــــــالَ التـــــــوائم

إن تَعُـــــــدْ محْسِـــــــناً إلـــــــىّ فَعُـــــــدْ بـــــــى

للعهـــــــودِ المقدّســـــــاتِ الكـــــــرائم

وإذا مـــــــا رأيـــــــتَ عزمـــــــىَ ينهـــــــا

رُفَثِّبـــــــتْ بالـــــــذِكْرَياتِ الـــــــدعائم

حِئْتَنِـــــــى فـــــــى الخريـــــــف والـــــــروض عـــــــارِ

فكســـــــوتَ الرُّبَـــــــى عـــــــذارَى البـــــــراعم

وأجـــــالَ الربيـــــعُ أخْضَـــــرَ كفَّيْـــــهِ

ليمحـــــو اصـــــفرارَه المُتـــــراكم

رحلـــــةٌ للنجـــــوم لـــــم تَـــــكُ أوهامـــــا

وبعـــــضُ النعـــــيم أوهـــــامُ حـــــالم

آهِ كـــــم ليلـــــةً أراجـــــعُ أيـــــامى

أعُـــــدُّ العُلَـــــى وأُحْصِـــــى العظـــــائم

وحســـــبتُ الخســـــارَ فيهـــــا فكـــــانَ

الغَـــــبْنُ عنـــــدى زَمـــــانِىَ المتقـــــادم

قبـــــل أن نلتقـــــى فلمـــــا تلاقَيْنـــــا

عرفـــــتُ الغِنَـــــى وذُقْـــــتُ المغـــــانم

حيثمـــــا أغْتَـــــدِى فـــــإنّ الـــــدرارى

مـــــلءُ روُحـــــى وفـــــى خيـــــالى بواســـــم

إن أبـــــتْ جائعـــــاً فثمّـــــةَ زادى

أو أبـــــتْ مُعْسِـــــراً فـــــثَمَّ الـــــدراهم

وعجيـــــبٌ قـــــد كنـــــتَ لـــــى حســـــدَ

الحسّـــــادِ فيهـــــا وكنـــــتَ أنـــــت التمـــــائم

بالـــــذى صُـــــنْتُ عهـــــده لـــــم أخنْـــــه

ومتـــــى خانـــــت الأكـــــفُّ المعاصـــــم؟

والـــــذى حُكْمُـــــه كأقـــــدار عينيـــــك

فمـــــا منهمـــــا ولا منـــــه عاصـــــم

أيُّ صـــــوتٍ مـــــن الغيـــــوب ينـــــاد

ينـــــى فـــــأطوى لـــــه الـــــدُّنَى والمعـــــالم

قـــــدَرٌ مُشْـــــعَلٌ علـــــى شـــــفةٍ تـــــدعو

فـــــأخطو علـــــى اللَّظـــــى غيـــــرَ نـــــادم

وفـــــؤادى يحـــــومُ بالنَـــــار لا يَـــــخْ

فِـــــلُ أنّـــــى علـــــى المنيَّـــــةِ حـــــائم

الهـــــوى مَصْـــــرَعى وكـــــم مـــــن حِمـــــامٍ

كـــــان بابـــــا إلـــــى الخلـــــود الـــــدائم

وطريقـــــاً مـــــن الأســـــنّةِ والشـــــوك

رَوَتْ أرضَـــــه الـــــدموعُ الســـــواجم

شـــــهد اللّـــــهُ مـــــا قضـــــيتُ الليـــــالى

نـــــاعمَ الجَنْـــــبِ فـــــوق مَهْـــــدٍ نـــــاعم

أيُّ جيْشَـــــيْك مُغْرقِـــــى ليْلـــــى الطـــــاغى

أم الشـــــوقُ وحـــــده وهـــــو عـــــارم؟

آه مِـــــن رُبَّمـــــا ومـــــن أمـــــلٍ يُـــــمْ

ســـــكُ نفســـــى رجـــــاءَ يـــــومٍ قـــــادم

قـــــد تجـــــىءُ الأنبـــــاءُ مـــــن شـــــاطىءَ

النيـــــل غـــــداً والمبشّـــــراتُ النســـــائم

وتكـــــونُ النجـــــاةُ فـــــى القمـــــر الســـــارى

علـــــى زورقٍ مـــــن النـــــور حـــــالم

2 الطائـر الجريـح

أيُّ جـــوادٍ قـــد كبـــا ... وأيُّ ســـيفٍ قـــد نبـــا
تعجبـــتْ زازا وقـــد ... حـــقٌ لهـــا أن تعجبـــا
لمـــا رأتْ فـــيَّ شـــحوب ... الشـــمس مالـــت مغربـــا
وهـــي التـــي زانـــت مشـــيبي ... بأكاليـــل الصِّـــبا
وهـــي التـــي قـــد علّمتْنـــي ... حـــين ألقـــى النُّوبـــا
كيـــف أُداري النـــابَ إن ... عـــضَّ وأخفـــي المخلبـــا
لاقيتُهـــا أرقـــصُ بشـــراً ... وأُغنـــي طربـــا
وهـــي التـــي تهتـــك سِـــتْرَ ... القلـــبِ مهمـــا انتقبـــا
لا مغلقـــاً تجهلـــه ... يومـــاً ولا مُغَيّبـــا
فـــي فطنـــةٍ تـــومضُ حتّـــى ... تستشـــفَّ مـــا خبـــا
رأتْ وراء الصـــدر طيـــراً ... قلِقـــاً مضـــطربا
فـــي قفـــصٍ يحلـــمُ بـــالأفق ... فيلقـــى القُضُـــبا
إنَّ زمانـــاً قـــد عفـــا ... وإنَّ عمـــراً ذهبـــا

وصـــــــيّرتْهُ طارقـــــــاتُ السـقم وَقــراً متعبــا

ورنَّقـــــــتْ مـــــورِدَهُ أنّــــى لــــه أن يَعُـــذبا؟

إنـــي امــرؤٌ عشــت زمــاني حـــــائراً معــــذَّبا

عشــــت زمــــاني لا أرى لخــــافقي منقلبـــا

مســــافراً لا قـــوم لـــي مبتعــــداً مغتربــا

مشــــاهداً عَلّـــيَ فـــي مســـرحِهِ أن ارقبـــا

روايـــة مُلَّـــت كمـــا مُـــلَّ الزمـــانُ معلبـــا

وظامئـــاً مهمـــا تُـــتَحْ مــــوادٌ أن أشــــربا

وجائعـــــاً لا زادَ فـــــي دنـــاي يشـــفي الســـغبا

فراشـــــة حائمـــــة علـــى الجمـــال والصـــبا

تعرَّضــــت فاحترقـــــت أغنيـــة علـــى الربـــى

تنـــاثرت وبعثـــرت رمادهـــا ريـــح الصّـــبا

أمشـــي بمصـــباحي وحيــداً فـــي الريـــاح متعبـــا

أمشـــــي بـــــه وزيتُـــــه كـــاد بـــه أن ينضـــبا

وشـــد مـــا طـــال الصـــراع بيننـــــا واحربـــــا

ريـــحُ المنايـــا تقتضـــيني نســـــماتي الخُلّبـــــا

ولـــيس بالأحـــداث فيمـــا قيـــل أو مـــا كتبـــا

كـــالعمر والســـقم إذا تحالفـــا واصــطحبا

لـــولاك مـــا قلـــت لشـــيء فـــي الوجـــود مرحبـــا

ولم أجد ركناً غنّياً ... بالحنانِ طيّبا

أنتِ التي أقمت مر ... فوعَ البناءِ من هَبا

وإنني الصخرُ الذي ... أردتِ أن لا يُغلبا

ويضرب البحرُ عليه ... موجَه منتحبا

علمتِ يأسي وجنوني ... وجهلتِ السببا

يا أملي إنك يأسُ ... القلبِ مهما اقتربا

يا كوكباً مهما أكن ... من بُرجه مقرَّبا

فإنه يظل في السَّمْتِ ... البعيدِ كوكبا

وأين مني فلك ... قد عزّني مطَّلبا

ليس إلى خياله ... إلا السهاد مركبا

أستبطئُ الريحَ له ... وأستحثُّ الكتبا

ولو طريق حبّه ... على القتاد والظُّبا

وقيل للقلب هنا الموتُ ... فعُدْ تسلم أبى

إني امرؤٌ عشتُ زماني ... حائراً معذّبا

لا أحسِب الأيام فيه ... أو أعُدُّ الحِقبا

ضقتُ بها كيف بمن ... ضاق بها أن يَحسبا

تغيّرتْ واختلفتْ ... وسائلاً ومطلبا

وارتفعتْ وانخفضتْ ... طرائقاً ومأربا

سلوت على الحالين حُمْلاناً ... بها وأذؤُبا

وشـــــاكلتْ لنـــــــاظري سـهولَها والهُضُـــبا
دخلتهــــــا غِـــــرّاً وعـــــدت فانيــــــــاً مجرِّبــــــــا
لا أســـــأل الأيـــــام عـــــن أعمالهــــــا معَقِّبـــــــا
إن كــان هــذا الـدهر فيمـا جــــرَّه قـــــد أذنبـــــا
فإنـــــــه تــــــاب وأدّى وعـــــدَهُ المرتقبـــــــا
لقـــــاكِ مـــــاحٍ للـــــذنوب كيـــــف لـــــي أن أعتبـــــا؟
ضـــممتُ عطْفيْـــكِ غـــداة الـــــروع أبغـــــي مهربــــــا
كــم خفــتُ مــن أن تــذهبي وخفـــتِ مـــن أن أذهبـــــا
كـــــأن طفــــــلاً خائفــــــاً فـــي أضــلعي حــلَّ الحُبــى
يضــرب مــا اسْــتطاع علــى جــــدرانها أن يضــــــربا
يكـــــــافحُ الأمـــــــواجَ أو يصـــــرعُ جيشــــــاً لجبــــــا
إن بَعُــــد الشــــطُّ فقـــد آن لـــــــه أن يقرُبـــــــا
أنـــــتِ الحيـــــاةُ والنجـــــاةُ والأمـــــانُ المجتبـــــى

ثلاث قصص مجهولة

للدكتور إبراهيم ناجي

* العبقري

تـأخر حسـنين المعمـاري فـي النـوم علـى خـلاف عادتـه. ولمـا كـان موظفـاً صـغيراً فلـم يكـن مـن المعقـول أن يظـل نائمـاً إلا إذا كـان مريضـاً أو مجنونـاً أو مفكـراً فـي الاسـتقالة، أخـذت أمـه زكيـة الغسـالة تقـرع البـاب بعنـف فـلا يجيبهـا أحـد فكـررت القـرع بـلا فائـدة. وكـان البـاب مغلقـاً مـن الـداخل فحسـبت زكيـة أن يكـون حسـنين قـد أصـابه شـئ وخاصـة لأنـه طالمـا أبـدى رغبـات سـالفة فـي الانتحـار... وكانـت طرقـه فـي سـبيل الانتحـار بطيئـة ومتعبـة وشـاذة. فمنهـا الجـوع، ومنهـا الزبيـب الـزحلاوي ومنهـا الاسـبرو بكميـات متقطعـة فخشـيت أن يكـون هـذه المـرة غيـر رأيـه فـي الانتحـار فجعلـه انتحـاراً حاداً..

فحـارت مـاذا تصـنع وبمـن تسـتنجد. وأخيـراً خطـر لهـا أن أمينـة التـي تسـكن فـي شـقة مقابلـة لهـم، والتـي بينهـا وبـين حسـنين صـلة غـرام عنيـف تحـدث عنـه الحـي كلـه، والتـي كانـت تعـرف عـن حسـنين وأسـراره مـا لا يعرفـه أحـد، ومـن هـذه الأسـرار كيفيـة دخـول غرفتـه وهـي مغلقـة مـن الـداخل فخرجـت زكيـة لتنـادي جارتهـا فوجـدتها تكـنس، فأخبرتهـا فـي فـزع أن حسـنين لـم يسـتيقظ بعـد، وأنهـا تخشـى أن يكـون أصـابه شـئ، فقهقهـت أمينـة ضـاحكة، وقالـت إنهـا تعـرف أن حسـنين صـمم علـى الاسـتقالة لينقطـع إلـى الموسـيقى فضـربت المـرأة صـدرها ولطمـت خـديها ومزقـت ثيابهـا وولولـت وهـي تقـول: مزيكـة.. أنـا صـرفت عليـه وضـيعت عمـري كلـه علشـان يبقى موظف. وبعدين يسيب الوظيفة ويقعد يدندن.

وبعد تمهل استطردت قائلة وهي تلهث:

وأنا عارفه إنه ناوي يتجوزك.. رايحين تاكلوا من المزيكة؟

فالتفتت أمينة إليها وكانت حلوة التقاطيع على وجهها طيبة ناطقة، وفي يديها جمال عجيب، لم تحجبه خشونة الفقر، وإهانة هذا الجلد الرخص الساحر بالتعب والكد وأجابت:

حسنين أستاذ عظيم، والوظيفة رايحه تدفن فنه.

قاطعتها زكية قائلة:

فن إيه يا بنتي.. عاجبك الشوية العوادين الطبالين اللي كل يوم عنده؟ الوظيفة تخليه يصاحب ناس كبار.

أجابت أمينة في إصرار: أنا اللي قلت له يسيب الحكومة وزيادة على كده قلت له إنه ينقطع للمزيكة.. يعني يدرس ويذاكر.. وهوه عاهدني على كده.

ثم سبقت زكية إلى غرفة حسنين وبحركة غريبة في لولب القفل انفتح الباب فإذا حسنين يرتدي ثوباً يابانياً مزكرشاً، وقد وضع على رأسه لاسة بلدي، وقد استلقى على سريره يقرأ.

قام مذعوراً عندما فتح الباب ولكنه اطمأن عندما هلت عليه أسارير أمينة ثم وجم حين لمح بوادر العاصفة على وجه أمه التي أخذت في الهجوم تواً، فصاحت قائلة: بقى تسيب الحكومة من غير ما تقول لي ولا تاخذ رأيي؟ وناوي تقفل الباب عليك تذاكر مزيكة؟ وناوي تدوشنا بالآلاتية بتوعك؟.. رايح تاكل منين.

قال في اطمئنان: مش شغلك انتي وأمينة.

قالت: شغل ايه.

قال: الشغل مش عيب غسيل ومكوى..

قالت أمينة بشجاعة- أي شغل شريف مش عيب.. النهارده احنا نتعب لك وانته بكرة ترد لنا كل شئ..

وكانت زكية طيبة جداً في باطنها برغم ما تتكلفه من العبوسة والصرامة فقالت متراجعة: اللي تشوفه أحسن نعمله.

قال حسنين : أنا أستعد لحفلة كبيرة يجيني منها شهرة كبيرة وفلوس وخلاص اتفقت مع أصحاب الصالة. وحددنا الوقت.. بعد أسبوعين.

ثم قام بعنف من سريره، وتناول عوده وأخذ يعزف ويغني.

قام إلى خزانة فأخرج منها نوتة موسيقية من وضعه..

وكانت أمينة تراقب كل هذا في صمت وإعجاب كانت الوحيدة التي تؤمن بثروته الدفينة، وعبقريته العميقة، كانت الوحيدة التي تؤمن بالذهب المجهول في هذا المنجم.

فما لبثت أن جرت زكية من يديها وخرجت معها بعد أن أغلقت الباب في صمت، واحترام.

واستمرت الأيام تترى.. وحسنين لا يخرج من غرفته مطلقاً، وزكية وأمينة تغسلان وتكويان للحي، بعد أن أعلنت الأم خطوبة ابنها لأمينة ابنة الست كريمة جارتها وحبيبتها.

وكان باب غرفة حسنين لا يفتح إلا ليتناول حسنين غذاءه، أو ليدخل زائر – من أهل الموسيقى- فيغلق الباب عليهما ويأخذ العزف والغناء في الجلجلة..

وأخيراً حل ميعاد الحفلة. وكان المسرح معداً، وجلس أحد المتعهدين في شباك التذاكر وجلس آخرون عند الباب ولما حان الوقت ظهرت الجوقة على المسرح يتوسطها حسنين في بدلة سموكن اشتركت أمينة وزكية في شرائها.

وحـان الوقـت، ولكـن لـم يجـئ أحـد، وظهـرت الكراسـي خاليـة كالعقـارب المتتاليـة. اللهـم إلا كرسـي فـي المقدمـة جلسـت فيـه امـرأة.. أمينـة.. وقـد ظهـر عليهـا القلـق، وهـي تتلفـت فـي الصالـة فـلا تـرى أحـداً إنهـا تنتظـر زكيـة، التـي أخبرتهـا أنهـا سـتلحق بهـا لأن عليهـا أن تنتهـي مـن بعـض الأعمـال الخاصـة بالزبـائن.. ولكنهـا لـلآن لـم تحضـر.. بـدأت الجوقـة العـزف ثـم أخـذ حسـنين يغنـي.. كـان يغنـي غنـاءً عبقريـاً حزينـاً، لـو حللـه أحـد لوجـده دموعـاً وفزعـاً ويأسـاً مميتـاً.. أخـذ يغنـي ويرجـع كأنـه يخاطـب عالمـاً بعيداً يسترحمه، ويرجوه أن يفهم ويزن ويقدر.

وكـان فـي ألحانـه شـارد اللـب، سـاهماً، شـاحباً، فينبعـث صـوته فـي الصـالة المقفـرة، وتتلاقـى عينـه بعـين أمينـة – المؤمنـة الوحيـدة – فتتكلـف القوة وترسل إليه نظرات مشجعة.

انتهـت "الوصـلة" فصـفقت المقاعـد الخاليـة وآمـن الفـراغ الأجـوف بما سرى إليه من الألحان الأبدية...

ولكـن جلبـة حـدثت فجـأة، فـإن حسـنين مالـت رأسـه وسـقط مـن كرسـيه، فقـام إليـه أفـراد الجوقـة يتعـاونون علـى إفاقتـه بوسـائل التنبيـه مـن ماء ونشادر إلى آخر مايملكه المعين في ذلك الوقت.

ارتاعت أمينة ووثبت إلى المسرح وهي تصرخ والهة.

وأخيـراً تعاونـت معهـم علـى حملـه للبيـت فـي عربـة فلمـا بلغـت بهمـا العربـة بـاب البيـت كـان حسـنين قـد اسـتعاد جأشـه علـى أنهمـا مـا فتحـا الباب ليدخلا حتى فوجئا بسقوط شئ ثقيل وراءه.

كـان هـذا جسـم زكيـة، التـي لا شـك كانـت تهـم بـالخروج ففاجأهـا الموت لدى الباب.

فصـاح حسـنين وهـو يشـعل عـود الثقـاب: أمـي..أمـي... وارتمـى عليهـا يبلـل وجههـا بدموعـه.. وأخـذت أمينـة تجهـش بالبكـاء وهـي تعينـه على حملها إلى السرير.

بعد أيام عاد حسنين إلى الوزارة، فقابله رئيسه زكي أفندي ساخرا، حين علم أنه يريد أن يسترد استقالته، قال له: ألم أقل لك إنك مغفل.. أتترك الوظيفة من أجل الموسيقى.. يا لك من أحمق.

أجاب حسنين وهو كالمذنب التائب:

لقد أخطأت، وندمت، ولن أعود لشئ اسمه الفن يوماً ما.. لقد أسلمت جميع النوت لزوجتي وأمرتها بإحراقها..

قال زكي أفندي:

أحسنت... من باكر يمكنك أن تعود لعملك.

تتابعت الأيام، وحسنين الموظف يذهب إلى الديوان، ويعود من الديوان، وقد أخذ يعتاد هذه العيشة الرتيبة ولكن الشخص الوحيد الذي لم يكن راضيا عن هذه الحال كان أمينة، فقد كانت تتعمد إيقاظ روحه الفنية، وتضع العود أمامه، وتغني له لكي يغني لها، ولكنه كان يتجنب كل ما له علاقة بالفن، يتجنبه في أسى ومرارة، وصورة الفشل تبدو له، والمقاعد الخالية، والصالة الصامتة، والإخفاق الذريع.

وقد فاجأته أمينة ذات يوم إذ احتضن العود، وأخذ كمن يخاطب عزيزا مات.. فاحترمت هذا المشهد الجليل ووقفت في صمت وتقديس، عن بعد، تتمنى أن يكون هذا الأسى المرير باعثاً على عمل فني جديد..

ذات يوم جلس حسنين كما يجلس الموظف، يتحدث إلى زوجته حديثا عاديا عن الحكومة والعلاوات، فإذا بالباب يقرع وإذا بالزائر، الحاج طه متعهد الحفلات المعروف.

أراد حسنين أن يعتذر عن مقابلته ولكن أمينة أجبرته على استقباله، دخل الحاج طه، وهو متفائل كعادته دائماً، وقال بلهجته البلدي: ايه ده يا سي حسنين كسلت ولا إيه؟ قال حسنين:

خلاص يا حاج طه، الست حرقت النوت.. ماعنديش حاجة.

فقهقهت أمينة ضاحكة، وقالت: النوت فاضلة إزاي أحرق فنك؟

قال الحاج طه:

يـا سـي حسـنين.. كلنـا عـارفين إنـت مـين. لكـن لازم دعايـة. لازم النـاس يتكلمـوا عنـك. مـين قـال إن الـذهب أحسـن مـن النحـاس.. بـالطبع كلام الناس..

عايزين كلام في الجرايد والمجلات وحفلة تانية..

فتنـاول حسـنين عـوده، وقـد أحـس فـي باطنـه بمـيلاد عبقـري ولكنـه رجـل سـماوي يعـيش مـع أهـل الأرض، فعليـه اسـتعمال أسـاليب أهـل الأرض، لكي يؤمن الناس به ويلتفتوا إليه.

* عملية زواج

كنا شلة من العزاب نستغل آخر ما في الشباب من قوة لكي نعتصر من الحياة آخر ما في أطايبها، كنا نقطع الحياة وثبا ونعيش في شبه حمى.. سهرات موصولة. قصف دائم. خمر يتدفق. عربدة لا تنقطع. نساء من كل لون وكل طبقة. كنا نرتكب من المآثم ما فوق جهد الشباب ومن الخطايا ما يضيق به أهل الجحيم، وكنا نثور على أي زواج ونضيق بأي استقرار وننفر من أية حياة منزلية بل لقد كنا نمقت البيت ونضيق درعا بالنهار ولا نستمع لغير الليل والكأس، وكنا حين تهدأ ثورة العربدة نصطنعها اصطناعا ونفتعل لياليها افتعالا.

وقال لي صديقي حسن - ذات مساء - وقد وجدني واجما على غير عادتي:

تعال نبحث عن شئ نتلهى به. فلبيته على الفور، ورحنا نضرب بالسيارة معا على غير هدى حتى وجدنا أنفسنا أخيراً في شارع محمد علي.

وكان الشارع الكبير يزخر في تلك الليلة بأضواء كثيرة ويسد حلقه سرادق ضخم تختلج أركانه بالرقص والموسيقى والغناء.

وقلت لحسن:

- ماذا لو دخلنا...

فأجابني بجرأته الخارقة:

- وايه يعني... ثم دخل.

ودخلت أنا في أعقابه، كان مظهر العرس يكشف عن غنى فاحش. وعلى الموائد خراف صغيرة مشوية تنتظم الموائد وتزاحم الورد. وتغطي على أنهار الشمبانيا المتدفقة.

ورحت - أنا وصديقي - نأكل ونشرب.. ونشرب ونأكل حتى لم أعد أعرفه ولم يعد يعرفني. وأخيراً غاب عني في زحام العرس فلم أتساءل إلى أين ذهب. وبقيت وحدي أدير في الحضور طرفاً نحاول أن نميز شيئاً فلا يستطيع وأخيراً.. فوجئت بكف تقبض على كتفي وتقول لي:

أهلاً أهلاً حسني.. أنا عمك بدر الدين، فين والدك ما جاش ليه؟

وقبل أن أجيب بشئ.. جرني من يدي وقال: بالطبع سوف تبيت هنا الليلة في السلاملك وأشار إليه.. هناك ستجد أولاًد عمك ثم تركني وانصرف.

وبقيت أنا في موضعي لا أكاد أعي من فرط الخمر التي شربتها، فلما بدأ المدعوون ينصرفون، رحت أجر نفسي من تثاقل عجيب حتى بلغت باب السلاملك - أو ما خيل إليَّ أنه السلاملك - ثم مضيت أصعد السلم في بطء وأنا أستند إلى الحاجز. وكان يدور في خاطري أن أول باب أجده مفتوحا.. هو بالطبع باب غرفتي. ولهذا جربت الباب الأول.. ثم الثاني. وأخيراً انفتح الباب الثالث فدلفت منه إلى الداخل، ورحت أتحسس طريقي في الظلام الدامس وأنا أبحث في جيبي عن عود من الثقاب. فلما وجدت العود أشعلته. وأبصرت على ضوئه كنبة صغيرة ما كدت ألمحها حتى ارتميت عليها دون أن أخلع ثيابي.. واستسلمت للنوم.

عندئذ أحسست بأن تحتي حشواً ناعماً. فخيل إليَّ أن المخدات محشوة بالحرير.. لأن بدر الدين بك رجل غني جداً وأخيراً غلبني النعاس.. غير أني كنت أشعر بين حين وآخر بأن هناك شيئاً يتحرك تحتي.. فكنت أعزو ذلك إلى ريش النعام الذي حشيت به الوسائد.

وأشرق الصباح أخيراً..

فاستيقظت - لا على صوته ولكن على صوت يقول:

مش تقومي بقى يا بنت؟

النهار طلع.. أنا رايح أشيل الستاير علشان تقومي بقى يا كسلانة.. انتي لازم شربتي كتير قوي امبارح.

وشعرت بيد فوق رأسي تزحزح الستار...

وفجأة.. اصطدمت اليد برأسي، فهممت واقفاً، ونظرت أمامي.. فإذا بي وجها لوجه أمام بدر الدين بك..

وما كاد بصر بدر الدين بك أن يقع على وجهي، حتى صاح في انفعال عنيف..

آه يا فاجر!.. في هذا الوضع المريب.. وفي غرفتي أنت والبنت..

وهنا كنت قفزت لأهرب وقفزت البنت أيضاً، وأخذت تصيح. وقفز ورائي بدر الدين بك وهو يشبعني لكماً وضرباً.. وتجمع أهل المنزل حولنا على الفور، كما تجمع الجيران أيضاً، وغير الجيران وكل منهم ينعتني بكلمة، أو يطعنني بلفظ. وأنا أدافع عن نفسي.. ولكن.. من ذا يصدقني؟

وأخيراً لمحت في الزحام وجه أمي وأبي يقبلان نحوي من بعيد وفي عيونهما غيظ, وخجل وحيرة وتقدم أبي نحوي صائحاً:

كـــده تكســـفنا وتفضـــحنا وتفـــرج علينـــا النـــاس.. إيـــه العمـــل دلوقت..

فصاحت إحدى الموجودات:

المأذون حالاً..

ولـــم أكـــن قـــد تبينـــت وجـــه عروســـي علـــى الإطـــلاق حتـــى تلـــك اللحظـــة.. أعنـــي وجـــه المســـكينة التـــي أخمـــدت أنفاســـها طيلـــة الليـــل وأنا أحسبها وسادة محشوة بريش النعام.

وبينمـــا أنـــا أدور برأســـي حـــائراً وســـط تلـــك الفضـــيحة الغريبـــة التـــي تتابعـــت صـــورها كفـــيلم مرعـــب يشـــبه الكـــابوس.. أبصرت المأذون يقبل ومعه كتابه الكبير..

فتنبهـــت عندئـــذ إلـــى نفســـي أن العـــريس – الـــذي هـــو أنـــا – فـــي حالـــة لا تســـر علـــى الإطـــلاق. شـــعر أشـــعث، ياقـــة بغيـــر ربـــاط قميص مفتوح بالطول بنطلون صار وراؤه أماماً.. وأمامه وراءَ..

ففكـــرت فـــي أن أهـــرب لإصـــلاح حـــالي.. وعندئـــذ عثـــرت بمن؟ بالعروس.

كانـــت جميلـــة جـــداً.. ورائعـــة جـــداً.. وفاتنـــة إلـــى حـــدٍ بعيـــد فابتسمت لها.. وابتسمت لي..

وتزوجنا.

* ذكرى حب

كانت الليلة ليلة عيد الميلاد وقد غطى الثلج دبلن كلها ووشاها بحلة ناصعة من البياض، غير أن هذا الثلج المتساقط كان مما يزيد هذا العيد بهجة وبخاصة حين تحتفل عائلة كعائلة المستر باتريك صاحب المخابز الشهرية بهذه الليلة، فيفد إلى منزله الأهل والأصدقاء منهم من يستقل التاكسي ومنهم من لا يبالي بالبرد والمطر المنهمر فيأتي وقد اكتسى معطفه ونعلاه بطبقة كأنها نسج من أفواف الثلج وإبراده، وفي ليلة عيد الميلاد حفل منزل المستر باتريك بالأصدقاء والأحباب ووقفت الخالتان جوليا وكيت تقولان ما لجابرييل لم يحضر؟ إن من عادته المواظبة على الحضور وفجأة سمعتا وقع أقدام ثقيلة فقالت جوليا لكيت لعله هو. وفعلاً كان هو جابرييل دخل وهو يتأبط ذراع زوجته الجميلة الحسناء جريتا، صاحت الخالتان مرجعتين وقالتا بلهفة اخلع معطفك إن الثلج قد كساه تماماً كيف هذا؟ ألم تجئ في تاكسي؟

قال ضاحكاً.. كلا فإن هذه السيدة - مشيراً إلى جريتا - تحب المشي في الليالي الباردة. أجابت جريتا ضاحكة، إني إنما أفعل هذا من أجلك فلقد سمنت ياجابرييل، ألا ترى كيف امتلأ صدر قميصك؟ فضحك الجميع وأخذ جابرييل يخلع معطفه وينفض الثلج من نعليه.

وأخذ جابرييل يخاصر زوجته ويرقص معها على أنغام الجاز، وبين أقداح الشراب، ولما هدأ الرقص وبدأ المغني يوقع لحناً جديداً لاحظ جابرييل بذكائه أن جريتا على الحيوية المتدفقة منها والإشراق المنبثق من عينيها كانت تبدو متعبة تتحامل على نفسها كأنما تغالب ضعفاً مسيطراً عليها.

وفي الواقع كان جابرييل يرى في عينيها ظلال دموع حائرة ولكنه ظن نفسه واهماً، فلم يزد شيئاً على هذه الملاحظة ولكنها انفلتت هاربة فجأة وهي تتكلف الضحك وقالت للحاضرين ألا يعجبكم هذا اللحن الذي يغنيه أوكونور الآن؟ لقد كان الملعون يدعي أنه مصاب ببرد وسعال وأنه لا يستطيع الغناء فألححنا عليه حتى صدع بالأمر، هذا لحن ايرلندي قديم، ولكنه لم يفقد روعته أبداً لحن بسيط، ولكنه يا رباه..

لم تكمل حديثها وأسرعت إلى حيث تستمع إلى اللحن من قريب ولكن المغني كان متعباً حقيقة فلم يستطع أن يستمر ومضت فجأة، فوقفت جريتا مخيبة الأمل ذاهلة وعندما هم المغني بالانصراف وأسرع إلى حيث يرتدي معطفه. وقفت جريتا وقد استندت بيديها إلى السلم.. استندت تستمع إلى ماذا؟ إلى لحن انتهى وقد صار بعيداً الآن. وهي تستمع الآن إلى تلك الموسيقى البعيدة وقد ذهلت عن نفسها وعن كل شئ في هذه الصورة البديعة فاجأها زوجها الذي كان يبحث عنها فوقف على بعد احتراماً لها وتمنى لو كان رساماً ليصور هذا الإصغاء ويدعوه، موسيقى بعيدة.. إنه لو كان مصوراً لأحدث بهذه الصورة ضجة كبيرة في عالم الفنون.

صاح بها. جريتا... فلم تلتفت فصاح بها ثانياً فتنبهت كمن يعود من حلم بعيد صاح مفتوناً بها: هيا بنا ننصرف فقد أوشك الفجر أن يطلع.. هيا بنا في صحبة المغني الذي أعجبت به.

هـا هـو يهـم بـالخروج تعـالي نسـتوقفه، ثـم صـاح بـه أكونـور فالتفـت المغنـي، وكـان يبـدو عليـه أمـارات الـرض فلمـا أبصـر جريتـا سـري عنه، وأخذ يتمهل منتظراً الخروج معهما.

سـارت جريتـا فـي صـحبة المغنـي وسـار جابرييـل علـى آثارهمـا وقـد ظلـل الفجـر الجديـد حواشـي المدينـة، فجـر داكـن محمـر، بينمـا الأرض قـد وشـاها البـرد فبـدأ المنظـر مثيـراً للـذكريات وخاصة بعد ليلة كهذه.

لقـد كـان جابرييـل مغرمـاً بزوجتـه إلـى حـد الجنـون، حقيقـة أنـه مضـى مـن حياتهمـا الزوجيـة عشـر سـنوات ولكنـه لا يـزال يـذكر بوضـوح كـل لحظـة مـن عهـود حبهمـا، يـذكر خطاباتهـا المعطـرة، وكيـف كانـت تصـله فـي الصـباح، فيمـر علـى الخطابـات مسـروراً كأنمـا يمر بيده على يد جريتا البضة الناعمة.

إنهـا الآن تمشـي أمامـه وهـا هـو يراهـا فـي ضـباب الفجـر.. لقـد كـان الفجـر يلفهـا فـي ضـبابه. ولكنهـا كانـت واضـحة المعـالم كتـاريخ حبهـا معـه، كـأن يـرى بعينـه الباطنـة كـل شـئ فـي حياتهـا كمـا يـرى كـل قطعـة مـن جسـمها الفـارع وهـي تسـير أمامـه الآن، هـا هـو شـعرها المفـروق اللامـع، هـا هـو صـدرها الممتلـئ الـدافئ هـا همـا ذراعاهـا اللـدنتان يسـيلان أنوثـة، وهمـا يطوقانـه آه مـا أشـوقه الآن لأن يأخـذها بـين ذراعيـه، يريـد أن يغرقهـا قـبلاً، يريـد أن لا يكـون فـي الكـون أحـد غيـره وغيرهـا الآن حمـدا للّه هـا هـو المغنـي قـد استأذن وحيا وتوارى في الضباب.

وأخيـراً وصـلا إلـى الفنـدق وهـو متلهـف علـى الخلـوة بهـا وهـا هـي جريتـا تلتفـت وتـدعوه إليهـا، ولكـن جريتـا أبطـأت فـي خلـع ثيابهـا، وشـعر بـأن جـو الغرفـة لـيس هـو الجـو الـدافئ الحـار الـذي يجمعهمـا دائمـاً كلمـا ضـمهما مكـان، اسـتدار وقـال فـي همـس:

جريتـــا، فأجابـــت نعـــم بـــبطء وفتـــور لـــم يتعودهمـــا فمـــا ذلـــك البطء..وذلك التمهل، ذلك الرد الذي يشبه الصمت.

فأســـرع إلـــى يـــدها البضـــة ممســـكاً إياهـــا وصـــاح: مـــاذا بـــك.. هـــل أنـــت مريضـــة؟ أجيبـــي.. قالـــت بـــل متعبـــة جـــداً يـــا جابرييـــل بـــي إعيـــاء لدرجـــة المـــوت، فـــأرجو أن تـــدعني وحـــدي.. يـــدعها وحـــدها ويتركها ودمه يثب وثباً وكل عواطفه تفور كرجل عنيف.

نسي نفسه وهزها هزاً قائلاً: ماذا بك، لماذا أنت متعبة؟

قالـــت: مـــن اللحـــن الـــذي ســـمعتة قـــال يـــا ربـــاه، لحـــنٌ كهـــذا يهد أعصابك هكذا.. قالت: نعم اللحن، وما يثيره من ذكرى !

على البلاج

قصة مصرية

اشترك في كتابتها ثلاثة كتاب

* صالح جودت * نجيب محفوظ * عبد الحميد جودة السحار

* بدأ القصة الأستاذ صالح جودت:

كان البحر في ثورة على الجمال..

الراية السوداء منصوبة تنذر بعدم الاقتراب من الماء ولهذا اكتفت صاحباتنا الثلاث بالاستلقاء على الرمل المتوهج تحت أشعة الشمس التي ينساب سحرها في بشرتهن فيكسوها طبقة رقيقة من النبيذ الأسمر المشرب بالحمرة.

ثلاث فتن.. لا يشك من يراهن في رقدتهن هذه أن الخطر كل الخطر الذي رفعت من أجله الراية السوداء، ليس كامنا في الموج، بل على الرمل وأن مغامرة الاقتراب من البحر قد تفقد الرجل حياته على الأكثر، ولكن مغامرة الاقتراب منهن تفقده دنياه وآخرته معاً.

وفيم تفكر هذه الفتن الثلاث؟ فيم يدور حديثهن الهمس الذي يمتزج بابتساماتهن الحلوة، ونظراتهن إلى أفق بعيد؟

لعلهن يتحدثن عن الحب، ولعل لكل واحدة منهن حبيباً ولعل حكاية كل منهن مع حبيبها تصلح لتأليف مادة كاملة لقصة شائقة.

ثلاث قصص راقدة أمامي على الرمل، وأنا مطل عليها من شرفة كازينو جليم، ومع هذا لا أجد مادة لقصة واحدة قصة تلزمني بها المجلة.. ويستعجلها برئيس التحرير للعدد القادم.

وفي غمرة هذه الحيرة، تفاجئني ضربة على كتفي من الخلف تسقط القلم من يدي وأتلفت إلى الوراء فأرى صديقي أنور يضحك من نظراتي إليهن ملء شدقيه ويقول:

إني أرقبك منذ نصف ساعة..

ثم يرتسم الجد على وجهه ويقول:

ولكن.. خير لك – ككاتب لا كمفتون – أن تنظر إلى الناحية الأخرى من الشاطئ.

ماذا هناك؟

هناك.. إلى هذه المظلة المخططة بالأحمر.. ألا ترى نظراتهن مترامية إلى هناك لا تتحول؟

وسكت لحظة ثم استطرد يقول:

هل تصدق أن هؤلاء الثلاث مشغولات برجل واحد.

** ثم تبعه الأستاذ نجيب محفوظ:

وكان صاحبنا السعيد، رجل المظلة الحمراء مشغولاً كذلك، ولكن بالفتن الثلاث معاً فوجد نفسه في حيرة وعز عليه أن يستمتع بسعادته السخية في صفاء وسلام وقد تواصلت رؤيته لهن على الساحل يوما بعد يوم فتردد بصره بينهن طويلاً ثم تنقل فؤاده بينهن دون أن يستقر على حال. تخلب لبه حينا السمراء الرشيقة التي تهوى بكل روحها الرياضة والسباحة فيوحي جسدها اللدن المرن بالانطلاق والحرية والحيوية ثم تجذبه ذات القد الرشيق والعينين الحالمتين التي تقسم وقتها بين السباحة والاستسلام للكرسي المتمدد فتسبح في تأملاتها أو تقرأ في كتاب وبين هذه وتلك تسترعي نظره ذات جسم ناضج، لم يرهله القعود ولا جففه الإغراق في الرياضة وسط في كل شئ تذكر جلستها الطويلة على الساحل بين أطفال الأسرة بالبيت والأمومة.

طالما ساءل نفسه أيها أحب إلى قلبه دون أن يظفر بجواب حاسم وكم تمنى لو يجمع الله الثلاثة في واحدة فيزين رشاقة الأولى بعقل الثانية ويكملهما بقلب الثالثة، وكم أنفق الساعات وهو يبادلهن نظراً شغوفاً ناطقاً وخياله دائب على الإنشاء والاختيار، والوصل والفصل، والخلط والمزج قانعا إلى حين بلذة الأحلام، وزاد من حيرته أنهن كن يستجبن لنظراته استجابات متعادلة في حرارتها ودلالاتها فلم تستأثر إحداهن باهتمامه بعطف قصرت دونه الأخريتان أو لتمنع يستثير النشاط والحماس ولما ضاق بحيرته وضاقت به حيرته صمم على الخروج منها

مهما كلفه الأمر ما باله لا يستعى للتعرف بهن؟ أليس من الممكن أن يتمخض الاختلاط عن رأي جديد يكون فيه الخلاص من حيرته؟

وقال لنفسه: سأتعرف بهن وإذا لم يخرجني التعارف من حيرتي كاشفتهن بنجوى قلبي واعترفت بحبي لهن جميعاً، وحيرتي فيهن، وسألتهن أن ينتشلنني من بلواي ولأنظر ماذا يكون بعد ذلك ومهما يكن من أمري وأمرهن فهي تجربة بارعة في لطافتها وفيما يحتمل أن تتكشف عنه من مختلف الحلول.

*** ثم اختتم القصة الأستاذ عبد الحميد جودة السحار:

ونهض وقد عزم على أن يسعى للتعرف بهن، وسار إلى حيث كانت الفتن الثلاث وما أندنا منهن حتى اعتدلن في جلستهن، وتطلعن إليه خافقات القلب، ورفت على شفاههن ابتسامات عذبة، وانبعث من عيونهن سحر. كانت كل منهن تحاول أن تبدي فتنتها لتسلبه لبه، وتسبي فؤاده.

وأحس وقع نظراتهن الساحرة في قلبه فخفف من خطوه وعادت إليه حيرته، فما كان يدري إلى أيتهن يتودد وأطرق يفكر في وسيلة تيسر له التعرف بهن ومكاشفتهن بنجوى قلبه، واعترافه لهن بحبه، وحيرته فيهن وفيما هو في تفكيره صك أذنيه صوت نسوي يصرخ فالتفت فرأى فتاة في اليم، تتلقى صفعات البحر الثائر الذي استخفت به، واقتحمته دون أن تأبه لغضبه أو تحترم ثورته.

وألقى نفسه يندفع إلى البحر كالسهم، ويلقي بنفسه في الماء وراح يشق عبابه، ويصارع أمواجه، حتى إذا بلغ الفتاة التي أنهكها الجهد ضمها إليه، وراح يسبح بها عائداً إلى الشاطئ وخرجا من الماء، هو يلف ذراعه حولها وهي تستند إلى صدره تحتمي خشية أن تنوء من الإعياء وانطلقا إلى المظلة المخططة بالأحمر، واستسلمت للكرسي المتمدد. وأخذت تلتقط أنفاسها في جهد، فيرتج صدرها الناهد الفتان.

ووقف يرنو إليها في دهش وإعجاب كانت تجمع ما كان يشتهيه في الفتن الثلاث، كانت سمراء رشيقة يوحي جسمها اللدن المرن بالحرية، والحيوية والانطلاق وكانت عيناها حالمتين ويستشف من قسماتها الرقة والحنان.

ورفعت صدرها الرائع ومدت في دلال تسوي شعرها السبط المتهدل، ثم راحت تتحدث إليه في صوت حلو أخاذ وهو يصغي إليها منشرح الصدر، متفتح القلب فقد قابل من كانت تتراى له في أحلامه على غير ميعاد.

ونهضها وفي عيونهما حب وفي صدرهما نشوة، وعلى شفاههما يرف الأمل البسام وساراً ومراً على الفتيات الثلاث فلم يحس بمن كن يملأن أقطار نفسه من لحظات، كان مشغولاً عنهن بحوريته التي خرجت له من الماء.

ونظرت إليهما الفتيات فأخذت عقارب الغيرة تنهش صدورهن، فغامت الوجوه الحلوة بسحائب من الحزن، وبان فيها الأسى العميق، ورفعت إحداهن بصرها إلى الراية السوداء، فازداد ضيقها فلولاها لما قابل من كانت ترتجيه تلك الفتاة.

ولم يطقن البقاء بعد أن سخر القدر بهن، فقمن وسرن خافضات الرؤوس، يجرجرن أرجلهن، فقد تملكهن اليأس بعد أن تكسرت آمالهن على الرمال.

والتفت إلى صديقي أنور فألفيته فاغراً فاه. أذهله ما جرى في لحظات قصار، فلم يسعفه لسانه ليعلق على ما رآه. والتفت ثانيةً إلى الفتيات المنسحبات من الميدان فحز في نفسي أن ينهزم السحر والرقة، والفتنة، والجمال.

* صدر للشاعر حسن توفيق

شعر :

1 - الدم في الحدائق - طبعة أولى - سنة 1969
2 - أحب أن أقول لا - طبعة أولى - سنة 1971
3 - قصائد عاشقة - طبعة أولى - سنة 1974
4 - حينما يصبح الحلم سيفاً - طبعة أولى - سنة 1978
5 - انتظار الآتي - طبعة أولى - سنة 1989
6 - قصة الطوفان من نوح إلى القرصان - طبعة أولى - 1989
7 - وجهها قصيدة لا تنتهي - طبعة أولى - سنة 1989
8 - ما رآه السندباد - طبعة أولى - سنة 1991
9 - ليلى تعشق ليلى - طبعة أولى - سنة 1996
10 - الأعمال الشعرية - طبعة أولى - سنة 1998
11- عشقت اثنتين : توشكا.. تمنراست - طبعة أولى - سنة 1999
12 - بغداد خانتني : قصائد ومقامات في حب العراق - طبعة أولى - سنة 2004
13 - وردة الإشراق - طبعة أولى - سنة 2005
14 - أحبك أيها الإنسان - طبعة أولى سنة 2008

مقامات عصرية:

1 - مجنون العرب بين رعد الغضب وليالي الطرب - طبعة أولى - سنة 2004
2 - ليلة القبض على مجنون العرب - طبعة أولى - سنة 2005

دراسة وتحقيق:

1- اتجاهات الشعر الحر - طبعة أولى - سنة 1970

2- إبراهيم ناجي - قصائد مجهولة - طبعة أولى – سنة 1978
3- شعر بدر شاكر السياب – دراسة فنية وفكرية - طبعة أولى – سنة 1979
4- أزهار ذابلة وقصائد مجهولة للسياب – طبعة أولى – 1980
5- جمال عبد الناصر – الزعيم في قلوب الشعراء – طبعة أولى - 1996
6- الأعمال الشعرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجي - طبعة أولى – سنة 1996
7- الأعمال النثرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجي (مجلدان) – طبعة أولى – سنة 2001
8- رحلات شاعر عاشق – طبعة أولى – سنة 2001
9- مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين –القسم الخاص بشعراء قطر – طبعة أولى – سنة 2001
10- جمال عبد الناصر – الزعيم في قلوب الشعراء – طبعة موسعة وشاملة - سنة 2002
11- الأعمال الشعرية المختارة للدكتور إبراهيم ناجي – طبعة أولى – سنة 2003
12 - محمد بن خليفة العطية شاعرا وإنسانا – تحرير وتقديم – طبعة أولى – سنة 2004
13 – خليل الفزيع والشعر – تقديم - طبعة أولى – سنة 2005
14- الحياة الحب.. شعراء جبناء ونساء لهن عضلات - طبعة أولى – 2009

* فهرس المحتويات

مقدمة بقلم : حسن توفيق 5

نص الرواية 15

1- بأي معجزة في الحب نتفق؟ 17

2- مكتب المحامي 23

3- زازا.. من هي؟ 29

4- ناني.. من هو؟ 35

5- عند الدكتور فانوس 41

6- العاصفة 49

7- بعجر أفندي 55

8- جروبي 61

9- الوقاحة تتجسد في امرأة! 67

10- نكسة الداء 71

11- عند المقاول 75

12- القرآن والإنجيل معاً 85

13- ليلة مع زازا 93

14- ليلة مع ناني 99

15- وفاء القادر وتردد الحائر 109

16- اللقاء الأخير 115

17- في المصحة 119

قصيدتان لناجي عن زازا 125

1- زازا 125

2- الطائـر الجريـح 129

ثلاث قصص مجهولة للدكتور إبراهيم ناجي

*- العبقري.....135
*- عملية زواج.....141
*- ذكرى حب.....145
على البلاج - قصة مصرية - اشترك في كتابتها ثلاثة كتاب:
*** صالح جودت * نجيب محفوظ * عبد الحميد جودة السحار**
*- بدأ القصة الأستاذ صالح جودت:.....151
** ثم تبعه الأستاذ نجيب محفوظ:.....153
***- ثم اختتم القصة الأستاذ عبد الحميد جودة السحار:.....155
فهرس المحتويات.....159